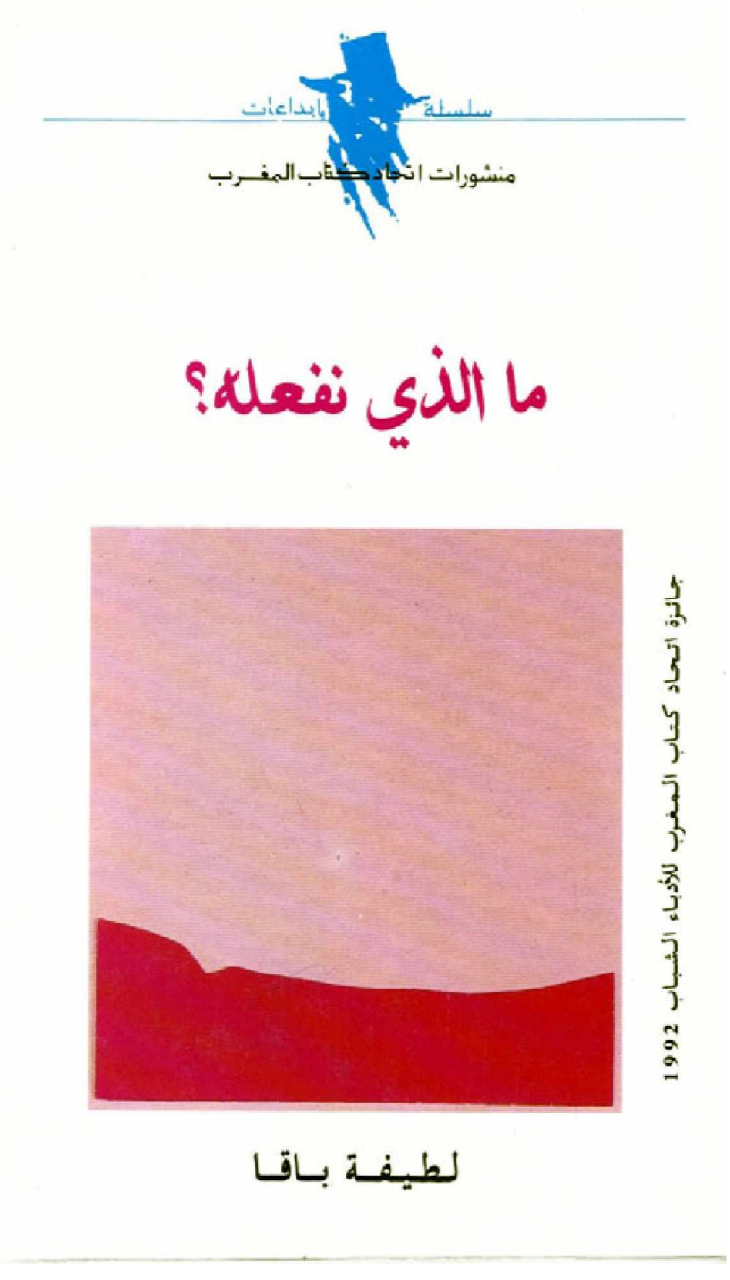
سلسلة إبداعات
منشورات اتحاد كتاب المغرب
ما الذي نفعله؟
جائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب 1992
لطيفة باقا

ما الذي نفعلـــه؟

جائزة الأدباء الشباب (دورة 92)

لطيفة باقا

ما الذي نفعله؟

مجموعة قصصية

تم تحميل هذا الكتاب من موقع اتحاد كتاب المغرب
www.unecma.net

تم طبع أعمال جائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب (دورة 1992)
بتعاون مع بنك الوفاء

▪ ما الذي نفعله؟ مجموعة قصصية، لطيفة باقا

▪ جائزة الأدباء الشباب (دورة 1992)

▪ منشورات اتحاد كتاب المغرب – 1993

▪ رقم الإيداع القانوني: 1993/612

▪ التصميم والتصفيف: الصحراء للطباعة والنشر

27، حي ابن سينا – الشقة 1 – أكدال – الرباط

▪ الغلاف من إنجاز بوشعيب هبولي

إلى زهور العلوي
... وحين نغوي الألم بالحكاية

ديدان معوية

تنادي على الطفلة من داخل المرحاض، تقول أن بها "الحنيشات". أتفحص جيدا غائطها: كانت هناك ديدان معوية. أعود لأتم كتابة الطلب الذي لم أستطع الجلوس إليه إلا قبل دقائق.

" أنهي إلى علمكم أنني من جنسية... " الجنس... الجنسية، الجنسوية أمر مسل تحديد المفاهيم هذا... حتى لا يقع خلط. فالجنس مثلا، وهو لفظ قصير – يقصد به تلك العملية التي تمارسها كل المخلوقات بما في ذلك النوع البشري، قيل للمحافظة على النوع - لا شك أن هذا صحيح لكن هناك نتيجة حتمية لهذه العملية وهي هذا العدد الهائل من العاطلين الذين ينتشرون كالجراد في أزقة ومقاهي المدينة. هذه المخلوقات العجيبة التي تتميز بكونها تفكر باستمرار أحيانا في وجودها الذي بلا مبرر... وأحيانا في قضايا أكثر خطورة.

أسمع الطفلة تنادي ثانية. هذه المرة كي أقوم بتنظيفها (!) – يا له من عمل! ألاحظ أن مؤخرتها الصغيرة تشبه تفاحة صفراء طازجة... أظل أقلب هذه الملاحظة في رأسي. أنتبه إليها: كانت

تحدثني عن الديدان المعوية.

تقول أمي إننا – أنا وأختي سلمى – كنا أيضـــا نعـــاني في صغرنا من هذه الديدان الدقيقة جدا وهذا كان يفسر لماذا كنا نشـــبه قطتين شريدتين كما كان يحلو لأبي أن يدعونا، وفي إحدى تلك الليالي الفيبرايرية البادرة عاد أبي ورائحة النبيذ تتقدمه على بعد متر، في كامل نشوته، وكان يخفي في كيس دراجته النارية الخلفي "طرونبة" (" مفرغة الجهاز الهضمي "ستصحح سلمى وتنفجر ضاحكة)، ملأها بـــالملح والماء وألقى بنا –أنا وهي - على بطنينا بعد أن أزال سراويلنا ثم أخذ في إفراغها فينا عبر جهازنا الشرجي.

تحكي أمي أننا مكثنا طريحتي الفراش مدة أسبوع كامل وأنه كان يردد بعد أن أتم العملية: - الملح.. الملح وحده يستطيع أن يقتلها.

أعتقد اليوم أن وصفة أبي الطبية الخاصة كانت ناجعة والدليل أن واحدة منا لم تشك في اليوم من داء الديدان المعوية.

أفكر أن أكتب لها ... سأخبرها أنني لم أعد أشكو مـــن داء المعدة وأنني أنوي قضاء العيد عندها..

- كيخصك شي طرونبة وشـــوية دمللـــح وتمـــوت ليـــك الحنيشات.

لم تسمعني الطفلة التي كانت تتربص بحشرة أبو دلع تعـــدو فوق السجاد أسرعت إلى فردة حذاء ... وخبطت الحشرة.. ظل بعض منها عالقا بالحذاء. أخذت الصغيرة تنظر إلى معجون الحشرة وتضحك سعيدة...!

أفكر في كل هذه الطلبات فتصعد غصة إلى حلقي. لكم

يؤلمني شعوري بأن لهذه الغصة طابعا أبديا .. ويؤلمني أكثر أن أكتشف إلى أي حد لم أعد أستطيع تصور وضع مخالف لهذا الذي أحياه..

ياه.. كم هي عبثية هذه الحياة (يبدو أنني أصبحت أنضم تدريجيا إلى طابور ضحايا وهم معنى الحياة). أتحسن الفطر الذي قذفت به الحمى هذا الصباح أسفل شفتي .لا بد أنني أهذي .. ومع ذلك تبدو الأشياء عبثية تماما.. وبشكل عنيف.. عنيف جدا..

أطوي الطلب وأضعه داخل الظرف ثم آخذ ورقة أخرى..

سلمى:

أنوي أن أرسل طلبا إلى شركة النسيج في الضاحية كما اقترحت على آخر مرة .. أما بخصوص المباراة فلم يصلني بعد الجواب، على العموم لا أترك نفسي تمضي خلف أوهام أنا في حاجة الآن لتحرر منها.أفكر أن أقضي عندك عطلة العيد . أقول "عطلة" لأني اكتسبت هذه العادة التي بواسطتها يفرق الناس "النشيطون" بين أيام العمل وأيام الراحة.نعم كما تقولين سأحاول أن أنسجم مع وضعي الحالي ... سأحاول قدر الإمكان . أعتقد أنه يلزمني وقت كي أقرر في بعض الأمور الخاصة. أتدرين.. أشاهد خلال نومي في الأيام الأخيرة أحلاما مفزعة. هل لا زلت تؤمنين بالأشباح؟

الأشباح! لماذا أتذكر أنها كانت تؤمن بالأشباح؟ كل الأطفال يؤمنون بالأشباح. كنت أعود من المدرسة في فترة المساء في سنوات الدراسة الأولى وأظل أسفل العمارة أنادي على أمي بكل صوتي كي تنزل إلي وترافقني إلى شقتنا التي كانت توجد في الطابق

الرابع...

دائما الأشباح.. هل تعتقد فيها أيضا هذه الصغيرة الناعمـــة كقطة؟ تبتدع الأسئلة وتفسدها بالصراخ . آخذها إلى صدري. أحاول أن أهدئ من روعها .. أفتعل حكاية مبعثرة ثم أهمس لها أننا ســنظل هادئين حتى تعود "الماما"لنذهب جميعا إلى حديقة الحيوان . تسأل عن ذلك.. "الأسد والنعامة والنمر والعصافير الملونة. لماذا تزقزق العصافير؟ هل تنام؟ هل صحيح أنها تتحـدث مع بعضـــها.. قـــولي هـــل هـــذا صحيح؟".

وأصلح أيضا مربية وحاضنة للأطفال (هل أضيف هـــذا في طلبي؟) وكاتبة وقارئة رسائل للجيران الأميين ومعلمة أطفال من كل المستويات – منزلية طبعا – غير مأجورة لأنهم الأقـــارب أو لأنهـــم الجيران.أتذكر أنني كتبت في أحد تلك الطلبات القديمة وكان الأمـــر يتعلق بالعمل في شركة للتصبير .. كتبت أن شرطي الأول والأخير أن يكون أجرى في مستوى عملي، أي بكلمة واحدة أنني أبيع قوة عملي وينبغي أن يكون الأجر مناسبا ...أين قرأت مثل هذا الكـــلام؟). الطفلة تريد تفصيلا في موضوع حديقة الحيـــوان. أنظـــر في عينيهـــا السوداوين الصغيرتين، أفكر أنهما تشبهان عيني كلب صغير .. ضال، يبدو أنها تنسى حكاية "الحنيشات"، لو أن أبي كـــان موجـــودا الآن لأفرغ في جهازها الشرجي، الذي يتوسط التفاحة الصفراء الطازجة، كيسا من الملح ثم عاد إلى مكانه بركن الحجرة واضعا القنينـة السوداء بين رجليه كالعادة .. عادة قديمة ربما تعود إلى مرحلة السكر في سيارة "الإدارة" عادة بلا مبرر ... لماذا تبدو الأمور غريبة عن أسبابها؟ هـــل هناك من يستطيع أن يبرر هذا الهوس السريالي الذي يـــتملكني منـــذ سنتين في كتابة الطلبات والتقدم للمباريات الميؤوس منها سلفا؟!

لكن رغم ذلك أتذكر أنني كنت أسأله وسط نشوته الـتي كانت عدواها إلينا ودفاتر الطفولة فوق ركبتينا.. كنت أسأله عن هذه العادة وأضحك فيتجاهل أسئلتي، كما أفعل الآن مع الطفلة .. كان يقول وأتذكر ذلك كأنه اليوم – والمطر ينقر زجاج النافـذة فـوق رأسنا:

- إذا ما مت يا طفلتي فلتدلقا على قبري عند كل زيارة قنينة من "الروج" هذه كل وصيتي... لا تنسيا ذلك.

لكن هناك حلم واحد يلاحقني كل ليلـة . أرى فيـه أبي سعيدا كما لم يكن أبدا... يجري خلفنا، يضاحكنا، يعانقنا ويشدك من شعرك.ونحن صغيرتان كما كنت بضفيرتيك الطويلتين النـاعمتين وكما كنت بشعري القصير كصبي.

نضحك جميعا. نلعب الاستغماية.يختبئ خلف الأشـجار .. نعدو في كل الاتجاهات نبحث عنه ... هناك غرفة مهجورة تشبه تلك التي كنا نرتاح فيها في طريقنا إلى "الجنان" في الريف رفقة نجية الجبلية، أتذكرين تلك الغرفة؟ أنا أتذكرها، لا يمكن أن أنساها. كانت نجيـة تقول أن فتيانا يصحبون فتيات إليها ويفتضون بكاراتهن ... فجـأة نتوقف.ندرك أنه غير موجود .لا يوجد في أي مكان .. نقترب من الغرفة – يبدو أن أبي أوصنا ألا ندخلها – أقترح أن نبحـث عنـه بالداخل.تمانعين، تقبضين بطرف ثوبي .أتملص منك، أدفعك عني .. وأدخل أشباح بيضاء صغيرة.. خفافيش ... وأستيقظ مذعورة! ".

لماذا أتذكره ثانية؟

كان يعلم أن نهايته موشكة.. لم يكن يبدو أن ذلك يحزنه

– كان يشرب، لم يستطع كل هذا العمر من الشـــرب أن يطفئ ظمئهكان دائما في حالة عطش حتى مات مخمـــورا !. ظـــل يشرب حتى آخر لحظة في حياته حين اعتقده "فيدور" الحانة مسطولا، هزه بعنف ليلقي به إلى الخارج ...وفي لحظة واحدة .. لحظـــة لـــن ينساها "الفيدور". أفترض ذلك على الأقل – وهو يهزه مشمئزا مـــن هذه الجثة النتنة.. ثم إنها فعلا جثة.. جثة حقيقية. لقد مات.. أيعقـــل ذلك؟ أخبرتنا "البارميت" فيما بعد أنه لم يتم كأسه.. الأخيرة.

هل كانت نهاية تراجيدية؟ الأكيد أنه ما كان ليأمـــل نهايـــة "أجمل" أبدا..

"سلمى هل يحصل لك أحيانا أن تفكري فيه؟ هل ترينـــه في أحلامك"

ستقول سلمى تلك العبارة التي طالما رددتها وهـــي لرســـامة ألمانية "هل يكون العيد أكثر جمالا إذا طالت مدته"

عبد! وحدها القنينات السوداء – التي كان يخفيها في جيب معطفه الداخلي عند عودته ليلا .. كانت ســـبيله في مراوغـــة قـــدره الوجوديه كم تصعد الذكرى واضحة كأنها اليوم .. كان يأخـــذ آلته الموسيقية الصغيرة "لارمونيكا"ويشرع في الإنشاد . أغاني فرنسية وأمريكية قديمة مزكومة بالماضي والحنين حفظناها مع الوقت وأصبحنا - أنا وأختي – نرافقه في الإنشاد... وكانت لتلك اللحظات رائحة.

هل تتذكرين يا سلمى .. هل تذكرين عينيه اللامعتين مـــن النشوة؟ وصوته ... هل تذكرين صوت أبينا؟ كـــم أعشـــق هـــذا الرجل...».

كنت أعشق فوضاه .. كان يخفي كل تلك الفوضى خلف نظام مفتعل فاشل.

كان رائعا أن نشهد معا حياة رجل مثله .. في كل حالاته الفانطاسية ".

كان دائما متوطئا معنا ضد أمنا المسكينة .. متواطئا معنا ضد أطفال الجيران، ألا زلت تذكرين يوم ضربتك "شادية" بنت أمي حبيبة بحجر فصعدت إلى البيت تبكين، كان هو يصنع لنا كرسيين من الخشب.. أتذكرين كيف أخذ قطعة طويلة من الخشب وناولك إياها وهو يقول: "اذهبي وكسلي مع يماها " هل تضحكين؟.. لكن لماذا يحضرني بهذا الشكل؟".

كان أبي يفضلني، و لم يكن هذا مزعجا تماما بالنسبة لسلمى لأن أمي كانت تفضلها.. كان يصر على قص شعري كي أبدو كولد، الولد الذي لم ينجبه.. كنت ولد أبي المفضل، لكن عندما اكتشف ذات عشية أن صدري بدأ ينتفخ وكنت أرتدي قميصا ضيقا فخورة بثديي الجديدين ضحك وجرني من شعري ثم طبع قبلة على عنقي .. كنت أفهم أنه سعيد بولده الذي أصبح فتاة ...

هكذا كان يقبلني أبي حتى عندما كبرت وأصبحت أتجاوز ياقة قميصه كان ممتعا أن أرافقه إلي السوق وهو يقبضني من رقبتي .. حين أصبحت أطول من أن يقبضني بطريقته المفضلة تلك كف عن أن يصحبني معه إلى السوق آنذاك فقط لم أعد متواطئة معه ضد أمي كما في الطفولة . كانت نقاشاتنا الحامية تنتهي دائما يتبادل السباب ولطم الأبواب .. بل إنه هددني في إحدى المرات – التي تصاعد فيها العراك إلى مستوى تكسير الصحون – بالطرد من "منزله" بدأ كل شيء عندما اكتشفت ذات يوم أن أمي لا تبارح

المطبخ.كانت بروليتارية من نوع خاص جدا .. وكان هذا هو "الطبيعي".. نحن نعيش وهي تصنع لنا ظروف ذلك يوما.. دون أن تصاب الآلة بعطب أبدا . أخذ هذا الاكتشاف بعد ذلك شكل وعـــي شقي.حدثته في البداية في الأمر بهدوء مدهش . لكنه كان يستطيع أن يشكك في عذرية مريم أما "طبيعة الأشياء" امرأة مساوية للرجل ف "هضرة خاوية".

يا لتلك المرأة .. كنت أهدد بسببها الطرد من المترل وكانت هي تأتي وتقف بحضو رها الهادئ عندما تشعر أن النقاش سيتحول إلى عراك.. وبكل برودة ولا مبالاة تضعني عند قدم الجدار – كما يقول الفرنسيون – " ماشي شغلك "بغيتي تغيري العالم؟ " كـــي لا يـــتغير العالم، كانت تضع قدمتها الصغيرة المتعبة في كفته لأنه زوجها .. لأنه رائع حتى في نذالته .. فيضحك.. ويشدني كما في الماضي الجميل من رقبتي ويجرني نحوه وهو يهزني.. ويضحك.. " أنت أيتها المعزة العفريتة ستكونين شيئا ما.. أولا شيس على الإطلاق ".

" سلمى.. أنا خائفة.. ووحيدة، أتظنين أن نبـــوءة أبي قـــد تحققت؟ ".

حكاية سخيفـــة

وضعت الحقيبة قربها وظلت تنظر إلى الفراغ... مد هو رجليه بكسل أمامه. أيقظها سؤال "الجارسون"، طلبت عصير برتقال ثم أدارت رأسها إلى النافذة . سمعته يدس يده في جيبه باحثا عن علبة الثقاب... " سيشعل واحدة من سجائره الرديئة ".فكرت أن ذلك مقيت وإذا أضيف إلى هذا القرف والفراغ...

- أرجوك لا تنفث جهتي... إنك تجعلني أختنق.

نفث قليلا من الدخان بعيدا عنها ثم نسي فعاد ينفث جهتها...

لم تستطع أن تتصور كيف تشتاق إليه طول هذه المدة وها هي جالسة أمامه تحدث نفسها عن الحب بعبثية حادة وتحملق في الفراغ ... كل شيء انكسر حولها حتى بدت محاولة حتى بدت محاولة خلق قمر جديد، يغير وجه السماء مستحيلة...

- هل اشتقت إلي؟

- لا ... لم أشتق لشيء.

نظرت إلى الخارج قبل أن تسمع رد فعله / جوابه كان هناك فتى مجون، ير كض ويدع ثيابه الممزقة تطير خلفه كأجنحة... وقفـــت تراقبه بعينيها حتى توارى...

- ألم تحلم بامتلاك جناحين؟ سألته بحدة مفاجئة ...

- ....

لم يدهشها صمته، لم تكن تنتظر منه غير ذلك.

" الجرسون الوسيم أحضر أخيرا كـــأس العصـــير وفنجـــان القهوة. وضع هو سكرتين ونصف في الفنجان وأخـــذ يحـــرك ... لاحظت أنه لم يعد يكتفي بواحدة ونصف ... لم تقرب كأس العصير، كانت تعلم أنه سانسوس وأشعرها هذا بالغثيان ... المقهى شبه فارغ وفي الخارج كان الشارع يعلن العيشة واحتفال الســـيقان المكـــتزة والأرداف... وضعت يدها على خدها وحاولت أن تفكر في مشروع القمر الجديد الذي سيعوض ذلك المهترئ القـــديم ... صـــعدت إلى ذاكرتي بعض الكلمات الجميلة التي كان يرددها الأطفال ذلك الصباح الربيعي عندما أخذهم في رحلة مدرسية إلى الغابة القريبة ... بعـــض الأغاني كانت رائعة وكانت الأصوات الرخيمة تحيى الغابـــة بعفويـــة بالغة... الأفواه المشرعة عن أسنان ناقصة (أكلها الفأر!)..

دخلت أم ومعها طفلين أشقرين، طلبت سانسوس لهما وقهوة لها. الطفل الأكبر يشبه طفلا آخر كان عندها هذه السنة في الفصل ... تشكلت أمامها صورة ذلك الطفل الذي لم يكن يتوقف عن طرح الأسئلة . سألها مرة عما كانت تريد أن تكون عندما كانت صغيرة .. تذكر أنها أجابته "فنانـــة" هنا قال لها أنه يريد أن يصبح رئيسا أو ميكانيكيا ووعدها أن يصـــلح لهـــا سيارتها الصغيرة البيضاء بدون مقابل ... وفي حصة الرسم كان يرسم دائما سيارة

ضخمة لا تقف في الضوء الأحمر وكانت تسأله لماذا؟ ... كان يجيب مندهشا من دهشتها: "إنها سيارة الرئيس ! " ... كانت الأم تسحب سيجارة من علبة السجائر عندما رفض الطفلان سانسوس.

مدت يدها للكأس أمامها ... سانسوس لم يستطع أن يكون أقل مرارة من المعتاد، يصنعونه من البرتقال الفاسد ... نفس البرتقال الذي يلوح به الأطفال الراسبون في الشهادة الابتدائية إلى سبورة النتائج... برتقال فاسد لأجل مستقبل فاسد... سانسوس عصير طبيعي 100 %.

المقهى أخذ يضج نوعا ما بالرواد... فتاة جميلة في الركن تقرأ جريدة وتتجاهل نظرات كل الرجال...

ظلت هي صامتة تراقب الأم التي تريد أن تجعل أطفالها يشربون عصير البرتقال الفاسد ... شعرت بحنين إلى الفصل لكنها الآن فصلت... كانت مؤقتة...

- ما هو المؤقت والدائم في هذا البلد... أريد أن أقول ما هو الثابت والمتحول؟

- كتاب لأدونيس.

ضحكت لأول مرة ومدت يدها لسانسوس وقربته إلى فمها وفي هذه اللحظة بالضبط تذكرت أنه فاسد فأعادت الكأس إلى الطاولة... تذكرت أيضا أمرا "فاسدا" أخر...نظرت إليه وفكرت ... كان يردد دائما : "يجب أن تضحي ... لماذا تقولين "لا" أنا أكره هذه الكلمة... " كانت هي تغني أغنية فرنسية تقول أن " كل شيء لا زال على ما يرام لكني حزينة وأريد أن أبتعد "... بعد ذلك

حدثت أشياء كثيرة ورديئة حد السخافة ... ربما كتبت ما حدث يوما ما، ربما دونت هذه المرارة كلمات.. ربما...

- بماذا تفكرين؟

- أفكر في قصة قصيرة ربما أكتبها هذا المساء.

- قصة قصيرة؟ أنكون بطلاها؟

- ستكون بدون أبطال ... مجرد أشباح في مقهى فارغ ...

"قدح من القهوة، ومقهى فارغ..."

- قصة حزينة؟...

- لا... قصة سخيفة.

- كيف ستبدأ؟

- أعطني ورقة... قد أبدؤها الآن ...

أخذت الورقة م نه وسحبت قلما من حقيبتـــها ثم كتبت: " وضعت الحقيبة قربها وظلت تنظر إلى الفراغ... مد هو رجليه بكسل أمامه...، الخ.

يــــداه

انتعلت " بلغتي " وذهبت إلى الحمام. اكتشفت مرة أخرى أن مسألة تغيير اسم اللوحة لا تزال تشغلني "خطـــوات تكســـر أوراق الخريف" اقترح "هو" ذلك المساء..

سأهيئ لنفسي كأسا كبيرا من الحليب الساخن.. منذ شهرين وأنا أشتغل على هذه اللوحة .. أراها كل يوم، حتى أصبحت أستشعر إحساسا خاصا كلما وقع بصري عليها .. إحساس بالاســـتهجان – خطوات تكسر أوراق الخريف..

كان يقول بإيقاع خاص .. كأنه يلقي شعرا.. يحب هـــو أن يدغدغ الكلمات.هكذا يلذ لي أن أفكـــر الآن .. ليســـت هنـــاك خطوات... أشجار عارية وأوراق ميتة وسكون خريفي قاتم الخطوات؟ ربما كانت قادمة من أحد الطرفين، من يدري..؟

أضع كأس الحليب عند قدم السرير .. ثم أعود فاضعة فـــوق المائدة حتى لا تدلقه أقدام؟ ربما كانت قادمة من جهة ما..

عندما انتفض الهاتف بجانبي كنت لا أزال أبحث عن الجورب الثاني، وصلني صوته عبر الأسلاك دافنا . سألني إن كنت قد صـــادفت قبل الآن رجلا مدهشا مثله .. وقبل أن أفكر في ســـؤاله ... كـــان يضيف أنه في واقع الأمر " كازونوفا" متقاعد مســـكين، اضـــطرته ظروف صحية محضة إلى الالتزام العاطفي مع فنانة معتوهة مثلي.. حين بدا أنه سيهدأ ليتساءل إن كنت معه دائما .. استغللت الفرصة لأخبره أنني أجد صعوبة في العثور على الجورب البني الثاني وســـط فوضـــى الحجرة.. وأنني أفكر في تغيير اسم اللوحة وتغيير قصة شعري (وصبغة لكني لم أقل ذلك طبعا) وأنهيت المكالمة. بحثت تحت الغطاء والوسائد وخلف الكتب والمجلات وأخيرا نزعت الجورب الأول وارتديت الحذاء بلا جوارب .وقفت أمام المرآة .. كانت الشعيرات البيضاء هناك، في رأسي، كما تركتها أمس ..؛ " وغزى الشيب مفرقي " يقول فريـــد الأطرش.. اللعنة!

وضعني تلاكسي أمام مقر الجمعية .. رأيت من بعيد شـــبح "عبد القادر"ورفيقته الجديدة ذات الصـــوت الخشـــن .. لم أتوقـــف لأنتظرهما..

كان الآخرون بالداخل، انحنيت أشرب من صـــنبور المـــاء الموجود في الساحة الصغيرة أمام قاعة الاجتماعية عنـــدما وقفـــت " خديجة / كونتر – بوند "عند رأسي تنتظر ني حتى مسحت فمي كي نقبل بعضنا.. وتجامل الواحدة الأخرى بسؤالها عن حالها وأحوالها وما إلى ذلك.. و لم تضيع الفرصة كالعادة لتخبرني أنها تتوفر على "سلعة " جيدة وما علي إلا أن أمر عليها يوما ما..

جلسنا حول الطاولة الممتدة وسط القاعة – كنــت أود أن آخذ رأيهم في اسم اللوحة.. في لحظة ما أدركت أن درجة حــرارة النقاش السياسي سترتفع .وربما هددت بانفجار الجمع .. كان رأسي يؤلمني..

ناولني عبد القادر قرصا مهدئا .. إنهم يتناقشون.. يختلفون.. يتوترون.. وأنا وسط هذه " الجوطية " ماذا أفعل؟.. أنا؟ إني أحــس برغبة مجنونة في الحديث عنه .. أخذت أتسلى بمراقبة الرغبــة وهــي تتقهقر.ثم وهي تنطفئ في صدري .. تدريجيا..وقفــت معتــذرة .. وانصرفت.

وضع النادل أمامي كعكة القشدة وكأس القهوة .. "المهرسة" ومضى.. ظللت أتابعه وهو يوزع التحيات على بعض الرواد.. ثم وهو يمد يده إلى جيبه ويضع بعض القطع النقدية في راحة الرجل الطويــل الذي كان يغادر المقهى .. قامة فارغة.. شدت اهتمامي بشكل غريب إلى أن تواري..

كان يلقي بحقيبتي خلف ظهره ويقلد مشيتي .. ويضــحك. وكنت أضحك أيضا .. لكن في رأسي كنت أشمئز من هذا النوع من الهزل..

حدثني عن أمه فكرت أنني لا أحب هذه المرأة .. بدون ما حاجة إلى سبب، تماما كمالا أحب مذاق البصل .. حدثته عن "رجاء" كنت أود أن أقول أكثر عنها .أو أرغب أن يحب من أحبهم .. لكــن صمته لم يكن ليشجعني .. فكرت إذن أنه ربما حدس عدم ارتيــاحي عندما كان يحدثني عن أمه.. ضحكت.. و لم يسألني لماذا أفعل..

أكلنا الساندويتش، أخبرته رأيي في الرجال الذين لا

يستسيغون أن تدفع عنهم امرأة ثمن ساندويتش.. هز رأسه وابتسم.. ثم أخذ يلتهم الساندويتش..

زرته في بيته، بعد ذلك، امتثالا لرغبته .. لم يكن مترله جميلا (كما أمضيت ليلتي أتخيل)سمعته يقول وهو يفتح النافذة الكبيرة .. أنه أحضر امرأة من "الوقف"، نظفت له البيت وغسلت له ثياب .. تذكرت أولئك النساء .. ابتلعت حقدي.. وفكرت في "رجاء" بأنفها اللامع وعدوانيتها الصبيانية.. كان هو في هذه الأثناء يحاول للمرة الأولى توريطي في مطبخه ... على الجدار المقابل للمدخل رأيت مكتبة حائطية كبيرة ممتدة حتى باب الحجرة.. كانت أكثر كتبه فلسفية أو روائية..أعجبني ذوقه الأدبي ..أنزلت بعض الكتب .. ثم شغلت التلفازبعد لحظة وجدت نفسي اتبعه إلى المطبخ .. رآني أدخل فابتسم.. كان ينظف سمكة كبيرة فتحت الثلاجة وأخذت تفاحة..

- لماذا دعوتني إلى بيتك.. أتريد أن تغويني؟

انفجر ضاحكا..وبدون أن يتوقف عن تنظيف السمكة كان يجيبني:

- أجل.. هل تمانعين؟

وجدت الحوار مسليا..

-هل تفعل هكذا مع كل الرسامات اللواتي تقذف بهن الصدفة للجلوس في المقعد المجاوز لمقعدك في ندوة حول الأدب والتشكيل؟

- ليس كلهن.. النسوانيات منهن فقط.

- ليست نسوانية. تماما كما أنك لسـت لواطيا.. أو هكذا أعتقد الآن على الأقل..

هنا وضع السمكة .. ونظر إلي طويلا.. ثم عـاد وتناولهـا .. انتابني للحظة إحساس أنه سيقذفني بالسـمكة .. تملكـتني رغبـة في الضحك.. أجهضتها. لقمت ببقايا التفاحة وأخذت أخرى .. نظرت إليها.. كانت شهية.. فكرت: " أنا حواء.. وأنت آدم ".

كان لا يزال ينظر لي .. يراقبني. حرك رأسه أخيرا وابتسم .. كما يفعل الناس عندما يستمعون لسخافة يتفوه بها طفل..

- لماذا ترسمين؟

- كان ينبغي أن أرسم.. حتى لا أخرج كثيرا من الجنة.. فأنا أحب التفاح كما ترى.. رأيته يضحك..

مد نحوي طبقا به أربع طماطم وطلب مني تقشيرها.. نظرت إليه بتواطؤ.. يصر على توريطي في مطبخه.. لا بأس.

- لم تتزوجي؟

- بلى.. لكن فشلت

- أنا أيضا.. تركتني بعدما خلصت إلى أنـني لا أصـلح أن أكون أبا لأطفالها الذين قررت إنجابهم .. تركتني وذهبت تبحث عـن أب أفضل..

وما كان ليعلم أنه وضع يده على الجرح القديم أخذ قلـبي يؤلمني..

- هل تبكي أحيانا؟ لم يسبق لي أن رأيتك تفعل..

- هل رأيتني أضحك؟

هزززت رأسي بالإيجاب .. طفت ابتسامة حزينة على وجهــه وسمعت يقول:

بحالي بحال شعرت بزخة حنان تنتشر في كل جســـدي .. تمنيت أن أضع يدي على رأسه .. فكرت بسرعة أن ألطف الجـــو .. هكذا يفعل الآخرون:

- تركتك إذن.. وهل أنت رديء إلى هذا الحد؟

ضحك بدون صوت..

- أجل.. أنت؟

ضحكنا طويلا.. كنا نراوغ بكرات بعضنا على ما يبـــدو) قبل أن تحترق السمكة.. ونكتفي بالبيض والسلطة.. والموسيقي..

كانت له ضحكة .. عندما وقف يدير الأسطورة اكتشـــفت يديه لأول مرة.. ومع انغام السمفونية السادسة لموزارت بدأت محاولتي في فهمهما.. يدين كبيرتين. طيبتين.. ماذا كانتا تقولان؟ كان يعيـــد ترتيب ما نثرت من كتب .هاتان اليدان تذكراني بشيء ما .. تصعد غصة مفاجئة من منطقة حارة في صدري.. تتوقف في حلقي..

"أبي!"

يستدير نحوي

نعم...

- هل أنا أميرتك يا أبي؟

كنا نركب الدراجة الموبيليت الحمراء وكنت ألقي برأسي على ظهره وأشد طرفي بدلته وأنا أسر لنفسي أنني أسعد من الأميرة في القصة المصورة عند "باحسون" صاحب المكتبة.. فإن تكون الفتاة أميرة يعني أنها لا تستطيع أن تركب خلف أبيها في دراجة نارية في صباح عطلة مدرسية لترافقه إلى المدينة حيث سيشتري لها حذاء جديدا وسندويتش " صوصيت " ثم يتركها قرب باب "البيسري" بعض الدقائق، ما يكفي ليكرع زجاجتي بيرة بسرعة .. فأبوها لا يملك على كل حال دراجة نارية من نوع موبيليت الحمراء ... زجرني أبي ودفع رأسي بكتفه وهوأميرني أن أتوقف عن مد عنقي فوق كتفه .. كنت أراقب حركات يديه على المقود .. يداه المتعبتان.. أحسست برغبة في لمسهما..مددت يدي نحوهما .. امتدت اليدان.. أخذتا يدي برفق وضغطتاهما.. كانتا دافئتين ...

رجاء تعشق الموسيقى الصاخبة وأكل الحلزون.. أزورها كلما أحسست بتفاهة العالم.. أخبرتني في ذلك اليوم البعيد أنها سترحل إلى إيطاليا ولن تعود أبدا . بعد ذلك جاءتني، في إحدى الليالي الممطرة، فتحت لها الباب، كانت ترتجف وأنفها يلمع.

أخذتها إلى الداخل .احتسينا معا فنجاني قهوة ساخنة . ونحن نشاهد الرسوم المتحركة على شاشة التلفزيون أخبرتني أن قريبها المهاجر الذي وعدها بالفيزانذال وأن "الوطن" لا يمنح نفسه سوى للعاهرات واللواطين.

وفي آخر الليل أسرت لي بمشروعها السري الـــذي كانـــت تكتمه عني حتى ذلك الحين:

-هما أمران لا ثالث لهما.. الإرهاب أو البغاء..

أخذت ورقة وكتبت عليها بأحمر شفاهها .. " متى سيتم الدفع بقضية تحرر أجسادنا إلى مصاف القضايا الساخنة "؟.

انفجرت ضاحكة.وقفت أمامي فوق الوسائد .. عرفت أنها ستلقي خطابا.. وبلغة مسرحية أعرفها سمعتها تقول "عندا تتحول كل النساء إلى بنات هوى " أضافت وهي تغمز بعينيها "تخيلي معي هـــذا العالم برمته.. بيد من ستكون السلطة؟؟ ".

رجاء تسخر من علاقتي "الجادة" به.. هي لم تعشق رجـــلا أبدافي. إحدى المرات حاولت أن توهم نفسها بذلك .. الذي حصل هو أن اللعبة استمرت ثلاث سنوات لتكتشف في الأخير أنها كانـــت مغرمة بالطريقة التي كان يهمس بها اسمها..

-رجاء.. رجاء.. بعذوبة متناهية – تقول رجاء – ما كان بوسعي إلا أن أقع في غرام هذا الاسم.

لم تكن رجاء ببيتها . أخبرتني جارتها أنها لا تعود إلا في وقت متأخر من الليل.. وأحيانا لا تعود.. ومصمصت شفتيها..

نزلت السلم وأنا أخطو مدخل العمارة .. كان التاكسي يقف وتترل منه رجاء.. "منهكة! " قلت لنفسي.. وأنا أستقبلها بكل عيني . كانت تضع ورقة نقدية في يد السائق .. غادرت التاكســـي دون ان تطالب بالباقي.. عندما رأتني هتفت بـــاسمي واســـتطعت أن أرى في عينيها سعادة.. كنت أحس بمثلها في عيني..

احتضنا بعضنا.شعرت بضعف جسدها بين يدي .. اعتصر قلبي. أخذتني من يدي وهي تقسم – كعادتها – بأن أمضي الليل معها.كان المطبخ واقعا في فوضى كاملة .. وفي رأسي كنت أداري سؤالا قذرا.أعدت رجاء الشاي وأشعلت سيجارة .. كانت أصابعها ترتعش.. ضبطتني أتابع حركات يدها..

أشعر ببرد هل يضايقك دخان السيجارة؟ هل أطفئها ..؟ كانت تسأل ولا تنتظر جوابا .. ضغطت رأس السيجارة بالمنفضة .. وسحبت شعرها الطويل الأجعد إلى الخلف ..كانت قد غيرت لونه .. لم يعد أنفها الصغير يلمع كما في السابق..

-رجاء أريد أن أستمع إليك.. كما في الماضي..

نظرت إلى بحنان .. ويبدو أنني كنت أصوب نظري بحدة نحو عينيها.. ارتكبت..حركت رأسها برأسي ..ثم انفجرت ضاحكة .. أخذت تضحك وتهز رأسها .وتخبط بيدها على فخذيها .. رأيت وجنتيها تصطبغان باللون الأحمر .فهمت أنها ستنهار .. وستبكي، أخذتها بين ذراعي.. ضممتها بعنف.. كانت رجاء تبكي كطفل.

ألقت رأسها على كتفي ثم عادت فاستلقت بجانبي على وجهها،... اكتفتنا لحظة الصمت بدت لا نهائية .. عندما مسحت عينيها، ضحكت.كانت عيناها تستعيدان نظرتها الساحرة القديمة .. أحسست أنها "رجاء"لولا شقرتها المزيفة .. ابتسمت من عبث الفكرة..

- تبدين مضحكة مثل دمية.. لماذا الأشقر وليس الأزرق..

أنت كنت تفضلين دائما اللون الأزرق.. أليس كذلك؟

ضحكنا.. سمعتها تقول وسط الضحك "ضحكنا في عرسك أسيدي رسول الله"..

أحضرت لي " ألبوم " الصور.. وكنت أقاوم بمرارة رغبــة جامحة في أن أقول لها:

-رجاء أنت مزيفة أو شعرك على الأقل..

كنت أريد أن أسألها عن مشروع تحرير الأجساد .. كنــت أفكر فحقد.. أخافني..

في المساء آتمت رجاء سيجارة .. خرجت لأجلب لها سجائر وبعض البن.. حين عدت كانت تشاهد برنامجا موسيقيا رأسا علــى عقب.. رأسها في الأسفل عند قدم السرير وقــدميها تتأرجحــان في الهواء.ضحكت وصعدت في رأسي ذكرى زمن جميل ولى " كانــت تقول وستارة النافذة تداعب قدميها .كان زمننا جميلا .. لأنه مضــى . حدثها عنه.. ضحكت وقالت أنها الإيديولوجيا وأنه مخجل أن تقع فيها فتاة كبيرة مثلي...

ثم توقفت عن الضحك وقالت بنبرة جادة.. غريبة:

-أتدري أنت محظوظة.. لم أنني كنت أحمل وهما ما في رأسي هذا لما كان هذا هو حالي .. (تناهي إلى سمعنا ضــجيج الشــباب في الخارج)تلسمعين هؤلاء الحشاشين أسفل البناية .. أتسمعين سعادتهم.. إنهم يغنونويركلون العلب القصديرية وزجاجات النبيذ الفارغة .. إنهم يركلون هذا الوجود البليد..

التلفزيون أمامنا يقدم مرهما للبشرة ..فتيــات جمــيلات .. وألوان. تذكرت شعري.. ثم وجهي.. وتذكرت اللوحة.

سألتني رجاء:

-ألا زلت ترسمين أوراقا ميتة؟

ارتشفنا قهوة المساء ثم خرجنا لرؤية فيلم في سينما الحي..

-ربما اغتصبنا أحدهم هذه الليلة..

كنا نضحك بسعادة..

رأينا فلما رومانسيا من بطولة بعض المصريين وبعض المصريات.. بكت رجاء وكنت أضحك من بكائها..

في مساء الغد وأنا أغادر بيتها وقفت عند الباب وشدت على يدي ثم قالت : هل سنظل صديقتين .. هل يمكن أن تظلي صديقة لامرأة مثلي؟

-وأنت هل يمكنك أن تستحملي امرأة تعشق الموت والرجال؟

ضحكت وعانقتني وهي تردد: " سأفكر في الأمر".

توقفت الحافلة أمام مقر عمله..

هب مهللا عندما رآني بباب مكتبه.. كنت أفكر أنا أن هذا التهليل مرحلي.. تماما مثل الحب.. عملنا على تفتيت الصمت حولنا.. عشية ممطرة ووجهي حزين..

أخذ في امتداح "ايشاربي" البنفسجي الذي يذكره بإيشارب أستاذة الإنجليزية..

سمعته يحكي كيف كان يتصورها عارية كلمـــا اســـتلقى في فراش المراهقة الأولى..

-كانت لها عينان بنفسجيتان.. واسعتان.. كانت الأجمل بين كل المدرسات والأكثر أناقة .. بورجوازية جميلة.. لا تستطيع تخيـــل جوعي.. امرأة لا تشبهك..

ابتسمت.قلت لنفسي أنه يغازلني .. لم أكن متأكدة مـــن ذلك.. لكني فرحت في أعماقي وتمنيت لمس يديه..

كنت قد تعودت إسقاط ثيابها عنها.. قطعة قطعة.. خلال كل حصة من حصص الإنجليزية .. أقبع في الصـــف الأخـــير وســـط استيهاماتي السرية..يذكرني إيشاربك بها .. (شددت الإيشارب حول كتفي.. قطرات المطر تنزلق على زجاج النافذة...).

كانت مدهشة في اختيار ألوانها .. تلك الطبقـــة لا تـــتقن نساؤها شيئا مثل إتقانهن لاختيار ألوان ملابسهن .. وجدت نفســـي أضع حقيبتي فوق مكتبه وأخطو نحو النافذة.. أمي كانت تفضل اللون الأبيض..كانت تعد القهوة .. قهوة العشية.. وكانت السماء تمطـــر بالخارج..تماما مثل الآن .. تعقص أمي شعري إلى أعلـــى بشـــرائط بيضاء.وتمنعني من اللعب مع الذكور .. عندما تأتي العشية تخرج أمي باحثة عني.. كانت غالبا ما تعثر علي وقد نقش شـــعري وضـــاعت الشرائط.أما حذائي فتجده مدسوسا في الجيوب الخلفية للسروال .. المتسخ..

أطفال محظوظون يتوجهون إلى المدرسة .. يحملون مظـــلات زاهية.انتابتني رغبة في الخروج ..حولت رأسي نحوه .. اصـــطدمت ابتسامتي بابتسامته.فكرت أنه ربما كان يبتسم لشيء قاله .. لم أكن أستمع إليه.. تداركت الأمر بسرعة

حتى أجعله يعتقد أننا نبتسم لنفس الشيء .. سحبت الستارة أكثر عن مربع النافذة..المطر بالخارج يحدث دفئا عني بالداخل .. كان المارة يقفزون فوق البرك المائية .. ويسرعون مبتعدين عن الأماكن غير المغطاة.. لم يكن الشارع مكتظا كالمعتاد .. رأيت فتى وفتاة يقبلان بعضهما أسفل مظلة سوداء .. "عندما يبدو أننا في العشرين " تقول الأغنية..

عيناي على يدي .. كنت أبحث عن يدي فتاة في العشرين لم تكتشف الخدعة بعد .. أصابعي نحيلة.. ومتعبة.. لكنها ما تزال في حاجة إلي الأغنيات..

الفتى يضم الفتاة إلى صدره .. تميل المظلة إلى الخلف .. تسقط.. يغمرها المطر.. سمعته يقترب.. وضع يده على كتفي..

-في ماذا تفكرين؟

-في يدي..

ضحك.. ضحكت.. ومد يده يعيد الستارة إلى وضعها الأول..

حســـاء رديء

كان حساء الليلة الماضية رديئا . فكرت أن أخبر فاطمة بذلك قبل خروجي فقد تحاول أن تعده أحسن لاحقا . بسرعة ارتديت المعطف واندفعت نحو الباب حتى كدت أدوس الطفل . لطمت الباب خلفي وكان الطفل يبكي.

تصطدم عيناي بالشمس في الخارج.. الرؤوس تستقبل الأشعة بكل بكل في محطة الحافلة .. تأتي أخيرا.. وتزحف مثقلة ببشر من درجة معينة متفقون على أن اليوم هو الإثنين وبداية أسبوع آخر.. و

-أي! سحق أحدهم قدمي.

الصباح لله.. سأبدأ أولا بالسيدة صاحبة بيع الأجهزة الكهربائية فقد وعدت أن ترى في الأمر وأخبرتني أنها تستطيع استقبالي في التاسعة صباحا..

وقفت أمام زجاج "الفيترينا" أصلح بعجالة من حال شعري الذي نفشه ركاب الحافلة المنفوشي الشعر.. كل شيء على ما

يرام.

لدي موعد مع السيدة صاحبة هذا المحــل . قالــت إنهــا ستستقبلني في التاسعة...

(نظرت إلى ساعة يدي البلاستيكية) التاسعة بالضبط.

الرجل بدين بعض الشيء وأبعد ما يكون عن اللطافة.

-المادام ماكايناش.

-ولكن قد وعدت أن ترى في الأمر وأعطتني موعدا على...

-يمكنك أن تعودي بعد ساعة..

طرأت لي فكرة أن أقوم بجولة في شوارع المدينــة أكتشــف صباحها..انفلتت مني ضحكة .أي صباح وأي مساء وأي .. زفت! تذكرت ابن خالتي الذي يعمل "زفاتا" في مدينة "ليل" بفرنسا.. زفات يعني أنه يأتي في عطلة الصيف ببذلة مستعملة مكوية جيدا حتى تختفي أثار صاحبها الأول الفرنسي بالضرورة .. وبعض الهــدايا البســيطة للعائلة.. ولا يتوقف عن الحديث "فرنسا جنة والحيــاة بهــا خرافــة حقيقية.. العمل موجود.أجرتك على قدر عملك ..العمر كــثير .. لك الحق حتى في أن تعمل عشرين ساعة في اليوم ... وتتقاضى أجرك كاملا على كل دقيقة عمل ... تصوروا معي... " لكــن... وقفــت واستدرت تماما. ظل صامتا، إنه يشبه الآن الطفل الذي تورط في عملية " اغتصاب"حارة السي الحاج .. مسكين! نظراته التي كانت وقحــة قبل لحظة تتراجع الآن تدريجيا أمام الانطباع الساحر في عيني...

- ألم تجدوا سوى حمارة السي الحاج؟!

وجدت نفسي أسأله وأنا لا أتمالك نفسي من الضحك ...!

السي الحاج هو شيخ القبيلة أما حمارته فكانت سوداء بعيون لامعة، وكان الوقت حصادا ..حين ذهب الكبار إلى الحقول، كان الصغار الأشقياء قد "برمجوا" العيشة.

تقول الطفلة "عيشة" ذات الأنف الأفطس، وهي من ضمن شاهدي العيان، أنه عندما كان الأولاد يخترقون الحمارة بنتوءاتهم الصغيرة كانت "تفرنس" فتظهر أسنانها، كما كانت عيناها تلمعان أكثر من أي وقت مضى .بعد ذلك كانت "أمي عيادة" التي تحب التفكه بمثل هذه الأمور تحكي كيف أن عيون الحمارة أصبحت تلمع بذلك الشكل الغريب وظلت "أمي عيادة" تردد كلما مرت قرب مجمع به السي الحاج : "هم عندي وهم جابتولي حمارتي " فيزمجر الرجل ويسخط عليها وينعتها "بالشارفة الماسخة".

لا زالت أتجول ..مررت أمام مكتبة .. في الواجهة كانت تلوح الكتب التي لم أقرأ بعد .. تذكرت جائع "أيام من عدس ".. كان يدخل هكذا المكتبات ويقتني ما يشاء ثم يخرج.

هل أستطيع؟

اتجهت رأسا نحو الجناح الأيمن : كتب تاريخ ... روايات ... دواوين ... كتب دينية ..استدرت إلى الجناح المقابل .. كتب عملية ...في كل الاختصاصات . تناولت كتابا "لبارث" شاهدت طبعة منه في الواجهة . قرأت الدفة الأخيرة من الكتاب.. حقيبة يدي الضخمة مفتوحة، سأدعه إذن يتزلق داخلها بكل هدوء.. رفعت رأسي نحو عامل الصندوق، كان

مشغولا مع أحد الزبناء .ليس هناك أي مزعج ..كل هذا رائع . وفي الطبقة العليا؟ اللعنة ! لماذا ينظر إلي هذا "خينا"؟ ويبتسم أيضا! حاولت أن أتشاغل عنه عله ييأس فيلتفت عني .. في هذه الأثناء بالضبط كان عامل المكتبة يقترب مني ليسألني إن كنت أود اقتناء هذا الكتـــاب " رفعت رأسي وحدجت فتى الطابق الأعلى بنظرة ساخطة .. وضـــعت الكتاب مكانه.. وخرجت.

-هل حضرت السيدة؟

ينظر إلي بغضب وكأن المحل محل أبيه .يهز رأسه ســـلبا .. وبالكاد يجيبني أن لا ...

-مع أن الساعة هي العاشرة والنصف!

-قلت أن السيدة لم تحضر وقد لا تحضر وفوق كل هذا ليس لدينا مكان شاغر للعمل. لدينا امرأتان تقومان بأعمال التنظيف يوميا.

أعمال التنظيف؟ ماذا تشرحين إذن لهذا اللعين؟ هل تشرحين له ما قالته سيدة المحل؟ هل تخبريه أنك ضقت ذرعا بحساء زوجة أخيك وصراخ الجوقة التي أنجبا في مدة تسع سنوات بنسبة واحد كل سنة؟ ! أم تخبريه أنه في الواقع ..لم تأت للتنظيف .بل لأن جيبك نظيـــف .. وأن السيل بلغ الزبى.. وأنـــني مجـــازة في خرافـــة حقيقيـــة اسمهـــا السوسيولوجيا!..

كان البدين يستقل زبناء..

تعودين غدا؟ أجل أعود غدا؟ أجل أعود غـــدا، ســـأطلب صباحا آخر من "الباترون" صاحب المخبزة.. وأعود فقد أجد السيدة.

في البيت نسيت مرة أخرى أن أخبر فاطمة رأيي في حساء ليلة أمس الذي بكل بساطة يشبه كل حساءاتها الماضية .. فلتطوره أو لا تطوره فأية حماقة عملية التغيير هذه التي تنفخ دماغي منذ لا أدري متى؟.. أخي لم يلاحظ أبدا أن الحساء رديء وأن صراخ الجوقة يتزايد كل سنة وأن ثمن سجائره تزايد ثلاث مرات خلال سنتين وأنه ... لم يضحك منذ مدة طويلة.. هي، فاطمة، تجد كل هذا طبيعي ولا تتوقف عن تقشير الجزر واللفت لإعداد الحساء كل ليلة.. وأنا أيضا! ماذا أريد أن أغير في حياتي بالضبط؟ هل كوني بائعة في مخبزة عصرية أنيقة تتقاضى 350درهما شهريا؟ آه ! تذكرت هناك ابن خالتي "الزفات".. لقد حدث فاطمة عن رغبته في "ستري" على الرغم مما قيل ويقال في وعلى الرغم من أن عمري الآن 31 سنة وما يشاع عن "رجولتي" وغروري الذي لا حدود له ... يقول أيضا أنه سيعود بصفة نهائية إلى الوطن لأجل هذا، ويكتري لي مترلا يضمنا معا .. ولن يكون ضروريا – طبعا أن أجري وراء الوظيف بعد ذلك ..الحل هكذا بدون شك.تصبحين سيدة بيت ككل النساء ..تكنسين وتغسلين الثياب .. وتلدين. المهم أن تكوني ولودا حتى لا يعيد نظره في القضية من الأساس ... وتطبخين.. أطبخ؟ أطبخ الحساء كل يوم؟ حساء كحساء فاطمة؟!

- فاطمة ! كان حساؤك رديئا ليلة أمس.

- حقا؟ لا يهم أخوك مستعد أن يتجرع أي شيء.

لابد أن ابن خالتي أيضا مستعد أن يتجرع أي شيء .. الحساء..الزيادة في السكر .. الخبز.. والسجائر.. وجوقة "الكوران" التي لا تتوقف عن الصراخ.. الموحد هكذا إذن..

" إلى الجحيم يا ابن خالتي الأقرع! "

فاطمة بقربي تغير لباس الطفل.. انفضت لصراخي..

-ماذا؟ ماذا بك؟ ما هذا الذي تقولين؟

-لا.. لا شيء.. لا شيء إطلاقا ...

صهد النساء وصهد الرجال

ليلة قائظة..

الرجال يلعبون الورق في المقهى.. والنساء يجتمعن أمام أبواب المنازل. كانت "أمي عفو" تحكي إحدى خرافتها للأطفال .. بعض النساء يحكين لبعضهن ما فعلنه خلال اليوم . في الخلف تجلس فتاتان متلاصقتان تتساران.. "أمي فاطمة" تشد إزارها حول رأسها وتعرج نحو بيتها..

فجأة تنتفض النساء لصرخة مدوية..

- إنها آتية من الطابق الأعلى.. إنها ابنتي!.

تدافعت النساء في السلالم وهن يركضن .. كانت.. المسكونة.. تقف وسط الحجرة تدق شظايا الأطباق والكؤوس بقدميها.. شاخصة ببصرها في الفراغ..

لكزت إحدى الفتاتين صديقتها وهمست مبتسمة:

- إنها تضع أحمر شفاه..

اجتمعت النساء في البهو يتناقشن في ملابســات الحــادث وانتهين إلى أنها مسكونة بالمسلمين

- إنها للا مليكة.. حنا بالله والشرع..حنا بالله والشـــرع .. أحرقت "أم المسكونة" بعض البخور...

أخذت بعض النسوة بعدن إلى أماكنهن ثم التحق بهن الباقي، وعادت "أمي عفوتة" تتم ما بدأته من حكي .. كان الأطفال يتحلقون حولها.. يلتقطون مما تنثره من خيالات..

وضعت "أم السكونة"رأس ابتنتها على ركبتها وأسندت ظهرها لجدار المترل باحثة عن شيء من الرطوبة.

- الهواء بارد نوعا ما هنا.. هذا يناسبها.. ستستسلم للنون بعد قليل.قالت الأم وهي تمسح بيدها على رأس ابنتها .. قالت الفتاة الأولى لصديقتها..

أنا أيضا أملك أحمر شفاه ..أخفيه عن أمي .. لو علم أبي بذلك لقتلني..مر أمامهما شبح .. عدلت الثانية التي تحجب شعر رأسها خلف منديل كبير أبيض، من جلستها .. ثم أخذت تداعب خصلة من شعرها تركتها تفلت من المنديل.. أخذتا تتابعان الشبح حتى توارى داخل مترل " عيادة الهجالة" بعد دقائق قليلة رأياه يخرج، ثم خرجت عيادة الهجالة ومعها " فاطمة بنت العسكري " في أعقابه، افترشتا "هيدورة" أمام المترل وجلستا.

"وقف الأمير في شرفة قصره ومد بصره. كانت " عائشة بنت النجار " فوق سطح مترلها تسقي بنات "الحبق" بمغرف صغير من الفضة..

قال الأمير:

لله يا ساقية الحبق وترشه الله عدي لي سحال من ورقة ف عرشه

ردت عليه عائشة:

نعد ليك الحجر والشجر نعد ليك الحوت في البحر

نعد ليك لأنثى والذكر وما نعد ليكش حبق للاك بنت النجار

تفقدت "أم المسكونة" ابنتها التي كانت قد استسلمت لإغفاءة عميقة.. حملتها بمساعدة إحدى النساء إلى الداخل..

التفتت الفتاة الأولى إلى رفيقتها التي كانت تلتصق بها مريحة رأسها على كتفها أومأت برأسها إلى "المسكونة":

بدأ كل شيء ذات صباح ممطر .. رفضت الذهاب للثانوية بعد ذلك أصبحت تمضي وقتها في كتابة الرسائل وإخفائهـــا تحـــت السرير.وفي فجر أحد الأيام الباردة .. قام السي الحاج أبوها للصلاة كعادته.. والصدفة رفع رأسه نحو "الحلقة" وسط السقف.. كانـــت المسكينة هناك على حافة السطح .. مقرفصة بثيابها الداخلية، شاخصة بعينها في بناية الثانوية..

- هل رآها أبوها وهي بثيابها الداخلية.. أعوذ بالله..

- تقول "أمي عفو" أن أمها سمعتها ذات صباح وهي مقرفصة على حافة السطح كعادتها.. تنادي بصوت خافت: "جيرار"

- يا لطيف.. إن جنها نصراني إذن وليس مسلما كما قالت النساء..

- جيرار هو اسم أستاذها للفيزياء.

"قال الأب لبناته:

- اسمعتي جيدا يا بناتي، ليس لكن من بعدي أقارب في هذه الدنيا..فلا تفتحن ب ابكن لأحد. هذه ســبعة زهـــور متفتحة، لكل واحدة منكن زهرة .. سأغيب في الحـــج سنة وعندما أعود سأتفقد زهور ركن.. ولم تفهم البنات سر الزهرة إلا عائشة. قالت عائشة لنفسها: " من أهملت منا زهرتها.. أهملت عرضها.. كن مطمئنا يا أبي ستعود وتجد زهرتي متفتحة كما تركتها " عيادة الهجالة تفرقع قطعة من العلك بين أضراسها وعلـــى حبـــات الخـــرز الصغيرة في

منديل رأسها ينعكس ضوء مصباح الزقاق الذي عمل الرجال على إصلاحه للمرة الرابعة على التوالي : كان الأطفال الذين يتحلقون الآن حول "امي عفو" يجربون عليه جبابيدهم الجديدة.

"قالت العجوز لعائشة بنت النجار: " أنزلي وساعديني في حمل صندوقي إلى حجرتك .اليوم دورك يا صغيرتي .. هيا ساعديني.. "

ردت عليها عائشة : أنا لا أستطيع ذلك يا عمه .. سألقي لك بحبل ثبتيه على الصندوق . أنا أجر من أعلى وأنت تدفعين من أسفل..

عقدت العجوز الحبل حول الصندوق، شدت عائشة طرف الحبل.. جرت نحوها.أخذ الصندوق يرتفع .. حتى وصل نصف المسافة، هنا أوقعت عائشة الحبل من يدها .. فسقط الصندوق وتكسر..

خرج منه الأمير يركض باتجاه باب المترل .. تبعته عائشة ولطمت خلفه الباب حتى مزقت قدمه اليسرى".

قالت عيادة لفاطمة بنت العسكري:

- غدا الخميس.. سيأتي العروبي وربما أحضر معه بعض الغلة.
أسندت فاطمة بنت العسكري رأسها على الجدار وراحت تحلم .. حلمت فاطمة بزوج حنون ومترل في الضاحية في الحي الجديد .. وأطفال جميلين.. رأت في الحلم أيضا فساتين بكل الألوان وحلي ذهبية على معصميها وحول عنقها ورأت نفسها جالسة تحت القبعة الكهربائية في صالون الحلاقة .. تتناول الحلاقة إحدى يديها وتقلم لها أظافرها ثم تزينها بطلاء أحمر لامع..

انظري إنه سيدي عبد السلام ولد الشريف .. صادفته هذا الصباح في الكوميسارية .نسبت أن أقول لك .. لقد أخبرني أنه سير علينا عند نزول الليل.. ادخلي.. إنه يقترب نحونا..

سقطت فاطمة بنت العسكري من مقعدها .. ولم يعد رأسها داخل القبعة الكهربائية الحارة .اصطدم رأسها ببرودة الواقع .. انفض جسدها المكتنز.. نحو عيادة بعينين واسعتين..

- ماذا بك يا بنت العسكري؟ ادخلي وجهزي نفسك..

تنكرت عائشة بنت النجار في ثيـ ـاب "عطــار" متجــول واقتربت من باب القصر تعرض خدماتها الطبية .. أدخلها الخدم عنــد الأمير، طلبت أن يحضر الوزير أيضا لمساعدتها في علاج قدم الأمــير المتعفنة.. أخرجت عائشة شرابا من حقيبتها وصبت منه كوبا للأمير ثم كوبا للوزير.. تخدر الرجالان.فبــادرت إلى حقيبتــها وأخرجــت مساحيق نسائية.. صبغت وجهيهما ثم خرجت وهي توصي الخدم بان لا يدخلوا على سيدهم إلا بعد ساعة لضرورات العــلاج .. عنــدما استيقظ الأمير والوزير .. أخذ كل واحد منهما ينظر للآخر ويشــير بأصبعه ويضحك.. قال الأمير:

- من صنع بك هذا يا وزير النحس؟

أجابه الوزير:

- اعذرني يا مولاي ولكنك تبدو كولية بكل هذه المساحيق على وجهك..

طأطأ الأمير مفكرا بعض الوقت ثم هتف فجأة:

- إنها عائشة.. إنها عائشة.. "

حذاء بدون كعب

الإثنين 24 / 12...

ركلت الهر الضخم . أخذت النساء أمام قاعة الأكل يضحكن. وصلت الممرضة. فتحت الباب، دخلنا وعمت الجلبة . وضعت صحي فوق المائدة .. وذهبت إلى ركن الغرفة لأخذ كرسيا. لكزتني حلومة بمرفقه وهمست وهي تغمز بعينها أن الطلبة الأطباء قادمون. نظرت ناحية الباب الحديدي : كان هناك حشد منهم برفقة الدكتور "زهير". صرخت فينا الممرضة أن نأخذ أماكننا بسرعة. ابتسم لي الطالب الأشقر ذو الشارب الكث، ثم وضع يده على كتفي وسألني بالفرنسية عن حالتي الصحية. رأيت الدكالية في المائدة المجاورة تبتسم . ضغط الدكتور زهير على زر الشاشة الإشعاعية، احتشد حوله الطلبة وأخذ يشرح لهم الصورة التي كان قد وضعها على الشاشة . سمعت أحدهم يسأله إن كان لا يخشى على الحالة رقم "42". تذكرت "ميلودة". لم تكن بالقاعة. همست في أذن حلومة بجواري:

- أين هي ميلودة؟

- بسريرها.. لم تستطع أن تقوم للغذاء.

- وهل حملن لها الطعام؟

- لا أدري.

مرت قربي الممرضة فاطمة، أشرت لها أن تقترب مـني .. ثم سألتها إن كانت قد حملت الطعام للمريضة رقم "42"... هزت رأسها بالإيجاب.

كانت الصورة الإشعاعية لرئتي ميلودة على شاشة الجهاز ... كلنا نتناول طعام الغذاء .. عدس وسلطة طماطم وبصل مع قليل مـن الزيتون. خمس حبات لكل مريضة . الدكتور "زهير" يختم حديثه عن حالة ميلوده بقوله إنها حالة عادية ويضيف بأنه ليس هناك أية حالـة ميؤوس من علاجها في الجناح . غادروا قاعة الأكل قبلنا من زجـاج الباب رأيت أمي حليمة تغادر الجناح خلفهم دافعة أمامها عربة الطعام.

أمام المغسلة أخبرتني "أمينة" أن ميلودة كانت تحلم ليلة أمس . وعندما سألتها ماذ ا تعني بذلك، قالت أنها كانت تصرخ وتئن خلال نومها. سألتها إن كانت متأكدة من أنها كانت نائمة .. هزت رأسها بالنفي.

مسحت يدي على سروال بيجاميتي وتسللت قبل الأخريات خارج المغسلة لأزور ميلودة . كانت تسدل جفنيهـا علـى عينيهـا الواسعتين وتتأوه... سألتها عن حالها ... هزت رأسـها في محاولـة لشكري وابتسمت. فكرت أنها جميلة.. تأملت شـحوبها... وزرقـة شفتيها وقمت إلى "صالتي" قبل أن تضبطني إحداهن خارج سريري.

كانت الصالة فارغة تقريبا من الزوار عندما وصلت جدتي.

دائما بنظرتها التي يختلط فيها خوف قديم بدهشة طفولية، وكانت المعتادحمل القفة الزرقاء والجريدة تحت إبطها . أخذت منها الجريدة قبل أن أقبلها ثم أحمل عنها القفة . حيت جدتي نساء الصالة ثم جلست على حافة السرير تسألني عن صحتي وعن موعد خروجي .. كان جليا أنها أصبحت تضيق من عناء الزيارة ومحنة الحافلات اليومية.

لن تمكث معي طويلا . ليس هناك ما نقوله لبعضنا ولا أرغب في تكرار نفسيثم إنها لم تتضايق أبدا من انشغالي عنها بالجريدة . لم يكن يبدو عليها أنها تنتظر مني سلوكا بعينه ولم أكن أنتظر منه أكثر من القفة الزرقاء والجريدة ...ونظرتها المحببة تلك ... هكذا فكرت وأنا أتفحص العناوين في الجريدة.

نظرت إلى ساعة يدها الرجالية ثم جرت إليها القفة . أخرجت خبزة من الشعير وقنينة من الماء المعدني وعلبتين. فتحت إحداهما وأرتني سمكة مقلية ثم عادت فأغلقتها . على اليمين الدكالية تثني رجليها الطويلتين وتضمهما إلى صدرها الضامر... كانت تبتسم موسعة ما بين ركبتيها.وضعت جدتي السرير . ألقت بحقيبة يدها القديمة (متى رأيت هذه الحقيبة لأول مرة؟) داخل القفة ووقفت.. فهمت أن علي أن أرافقها حتى الباب الحديدي الذي يفصلنا عن جناح الرجال وحديقة المستشفى. قبلتني عند الباب وذهبت دون أن تلتفت.

وقفت أراقب أحد المرضى العجزة يحلق ذقنه على مرآة مكسرة بين فرعي شجرة أمام الجناح الرجالي .. ضبطني فابتسم، ثم بدا كأنه تحدث إلي.. لم أتبين جيدا ما الذي قاله.. ابتسمت

ورفعت له يدي . خلف الأشجار رآني الحارس فصرخ في أن أدخـــل، سمعه الشيخ.. ضحك وأشار لي برأسه أن أمتثل للأمر...

نظرت للحارس، الذي أخذ يقترب، أخرجت لـــه أصـــبعي الوسطى و... دخلت...

الأربعاء 26 – 12

حالة ميلودة تزداد سوءا.

حلومة تجلس تحت الشجرة الهرمة تحاول قراءة الجريـــدة ... أتذكر أول مرة رأيتها فيها .. كانت تقف في الطابور أمـــام المطـــبخ، صحنها في يدها، تبدو غريبة الأطوار بين النساء بكعبها العالي.. بعـــد ذلك رأيت كيف كانت تدخل الحوارات مع بعض المريضات بعفوية تامة.. في ليلة نفس اليوم ضبطتها تدخن في المرحاض بعـــد أن نـــام الجميع. ضحكت بدون صوت ونظرت إلى سيجارتها ثم إلي فســـألتني عن توقيت الاستيقاظ من النوم في هذه المستشفى..

حكت لي بعد ذلك –ونحن تحت الشجرة العجـــوزة ذات أحد – قصتها مع ابن خالتها ...

- كانت المناسبة عرس إحدى القريبات وكنت بصحبة البنات ننقـــل الماء من البئر .. تأخرت عنهن قليلا كان هو هناك يراقبني منذ خرجت من خيمتنا طلب مني أن يحمل عني القلة وهناك بين الأشجار في الطريق الخالية ... كسر "قلتي".. حضرت بعد ذلك خالتي والعائلة وكانت أمي وأخواتي البنات يبكين . أكبر إخوتي هو جنـــدي في الصـــحراء توعدني بالقتل.. كنت مرهقة وأريد أن أختفي من أمامهم جميعـــا. لم تكن البكارة تعني لي شيئا بعينه.. لم

يهمني شيء أبدا .. كنت أرفضه زوجا . شيء واحد كان أكيـــدا ... كنت أحتقره..

ولثقة حلومة أن ذلك كان منعطف حياتها الرئيسي . أخذت تاكسي حملها إلى الرباط.

تضحك حلومة.. تضحك ملء مرارتها وهي تحكي..

- أتدري عندما أردت أخذ بطاقتي الوطنية سألني الموظف عن مهنتي فأجبته:

"قحبة"

أراها ترمي القط الضخم بحجر.. ولا تصيبه.

أخبرتني وأنا أرتشف معها الشاي فوق سريرها أنها حاولت الانتحار أكثر من مرة . في إحدى تلك المحاولات كانت ثملة وفي قمة اليأس لبست جلبابها وخرجت جهة السانيات ومعها قارورة من دواء البرغوت، أنقذها سكيران كانا هناك يشربان.

المساء...

" أكثر النساء حقيقة وعفوية عاهرات " كتبت خلف الصورة التي أهدتني إياها حلومة هذا الصباح والتي تمثلها وهي باللباس الزموري الجميل.

الدكالية مستلقية الآن على صدرها تقضم تفاحة كبيرة . راق لي منظر ساقيها الطويلتين وهما تتأرجحان في الهواء وســـط ســـروال البيجاما، فكرت أن هؤلاء النساء لم يسبق لهن أبدا أن ارتدين سراويل طويلة: هن الآن مضطرات لا غير.

بعض النساء نائمات والبعض الآخر يحملق في الفراغ..

من خلال زجاج الباب رأيت الممرضة نوال التي يفسر جسدها الصغير كطفلة غرورها واعتدادها المضحك، كانت تعنف حلومة الزمورية. في ذلك الصباح البعيد وجدتها تصنفين مباشرة ضمن اليسار المتطـــرف " المريضة رقم 36 فوضوية " فتقف عند رأسي الطبيبـــة ذات الشـــعر الأحمر الطويل، كجنيات الأساطير المرعبة، تتعجب لعدم "وقوفي" إلى جانبهم لإرساء النظام داخل الجناح مع أنني "قارية وواعية".

ألتفت حولي، فكرت أن أقف في الوسط وأخطب فيهن بخصوص ما حدث داخل هذا الجناح.. عن المرحاض الذي يفتح ويغلق حســب توقيت محدد.و حظر التجول في حديقة المستشفى . عـــن الأشـــغال الإجبارية التي يسمونها بيجامات .. والدوش.. الدوش الذي ألقوه فوق رؤوسنا حارا... أردت أن أدعوهن للتمرد على الوضـــع ".. ظللـــن صامتات يحملقن في الفراغ أمامهن .الساعة في معصـــمي تشـــير إلى الرابعة. تأملت وجوههن المنطفئة واحدة ثم انقلبت بجسدي الـــواهن وانسحبت بعيدا بتفكيري أراقب بعض الطيور التي كانت تحط علـــى الشجرة الهرمة أمام الصالة . أخذت أعدها. أربعة.. بل خمســـة طـــار واحد وحط بجانب الآخرين ... في هذه الفترة من الظهيرة من توقيت المستشفى يظل الكل شاردا محملقا في الفراغ...

حتى الطيور. لم يعد الآن على الشجرة سوى طائرين صغيري الحجم إذا ما قورنا بالطيور الأخـــرى الـــتي كانـــت تحلـــق الآن في السماء... سماء المستشفى...

ساعة القيلولة. حين يستعصي علي النوم عادة . الدكالية تعد أيامها التي مرت وأيامها التي مرت وأيامها التي ستأتي بهذا الجنـــاح .. وتستعمل أصابعها في ذلك.. ساقاها ما زالتا تتأرجحان في الهواء...

توقف المنظر عن أن يسليني . زلت قدم الهر الضخم فرقع في برميل القمامة.. هناك كائنات هامشية تقتات على حساب بؤسنا... صعد الهر ببقايا كعكة في فمه .. عيناه صفراوان. رأى بعض القطط الصغيرة قادمة من جهة المطبخ .. لم يعرها انتباها، من جهتها لم يصدر عنها أي سلوك بإمكانه إزعاج الهر الكبير ...حاول أحدها تسلق البرميل .. ظل الآخرون في الأسفل يبحثان في الفضلات ... لماذا لم أستطع أبدا أن أحب القطط؟..

في الجريدة قصيدة مترجمة لشاعر لا أعرفه، الشاعر تحدث عن شجرة تتضخم عند المساء وعن مصابيح تلمع ليلا بين أوراق الشجر . تذكرت الضوء الذي ظل يزعجني ليلا ولا أعرف مصدره . ذلك الضوء الذي يقتحمني من وراء النخلة العملاقة التي تبدو سوداء عظيمة خلال الليل من مربع زجاج الباب في "الصالة" أخبرت الدكالية بذلك فقالت إن المريضة التي كانت قبلي في هذا السرير كانت تشكو أيضا من نفس الشيء.

- إنها سجن –ليست للعلاج أبدا ! " كانت الدكالية تردد وتلعن زوجها الذي أدخلها إليها.. وكنت أفكر بالخارج.

عندما يأتي الليل يستخرج النساء "طشتات" الغسيل البلاستيكية الصغيرة من تحب الأسرة لتحيين حفلة المساء. أحيانا كانت "مي غنو" الحارسة الليلية تقبل بجثتها الثقيلة فتعنفا لنا ثم تطفئ النور وتغلق الأبواب... وتنسحب كما حضرت بخطوات بطيئة تئن فيها "بلغتها" تحت وطأة جسدها الضخم الهرم.

ذات ليلة وبعد أن ذهبت "مي غنو" وعم السكوت في الجناح بأكمله أنير المصباح فجأة وانطلقت ضحكة هستيرية مدوية ثم

تتالت الضحكات والصياح وكلمات متداخلة مـــن نـــوع "ويلـــي" و"حشومة". كانت النساء يضحكن ويخفين رؤوسهن وأمامهن كانت "فاطنة الزايانية" تنزع سروالها وترقص متنقلة بين الأسرة.

في الصباح رأيت فاطنة ا لزايانية مقرفصة فوق فراشها تكحل عينيها كعادتها كلما اقترب موعد قدوم الزوار.

مدت إحداهن رأسا نحوي وأخبرتني أن فاطنة كانت تعمـــل "بارميت" في صباها وأنها شيخة متقاعدة كما أنها عملت في المنـــازل والفرمات إلى أن استقر بها المآل بالمستشفى.

- إنها طيبة.. وزهوانية مع رأسها! ضحكت المرأة وأشارت إلى الزايانية التي كانت تمشك بعض الشعيرات المتبقية على هامتـــها . عرفتها عندما جاءتني، في ذلك المساء البعيد، بورقة وطلبت مـــني أن أكتب لها رسالة ... وحين حمل لها الدكتور زهـــير خـــبر خروجهـــا وضعت الزايانية على خزانتي باقة الزهور التي كانت علـــى خزانتـــها وقالت لي الزهور كتفاجي شويا على الخاطر ". لحظة المغادرة بكـــت وقبلتنا جميعا بعد أن اقترضت مني ألف فرنك ومن الدكالية جلبابهـــا وقفتها على أساس إرجاع كل ما استعارته خلال يوم أو يومين علـــى الأكثر... ثم تقدمت بخفة نحو الباب الحديدي الذي كان قـــد فـــتح لأجلها، لم تستطع أن تخفي سعادتها... أبدا لم تكن الزايانية أكثر جمالا وأناقة من تلك اللحظة ..التفتت إلينا بنظرة أخيرة . رفعت يـــدها ثم غادرت الجناح.. و لم تعد. سألتني الدكالية:

- لمن أرسلت فاطنة الزايانية الرسالة؟

- لا أعرف ... لأحد أقاربها فيما أعتقد.

لم يبد أن جوابي أنه أشبع فضولها: نظرت إلي باستنكار، ثم أضافت أنها لم تكن تحب تلك "القحبة الشارفة" وعموما هي لا تحب الزايانيـــات ولا الزموريات ونعتتهن "بشلوح الختر".

الخميس 27 – 12...

أمشي منحنية الظهر منذ يومين . أمي الطاهرة، المريضة الـــتي تنام أمامي، تدلك لي صدري وظهري ليلا بالزيت وتحزم حولي الخرق لأتدفأ، بعد ذلك تلفني جيدا بالأغطية قبل أن تـــذهب إلى ســـريرها . الدكالية تضحك وتلقبني ب "منانة" لأن منانة كانت أيضا لا تستطيع أن تستوي واقفة.

في هذا الصباح زارني أبي. كنت أصارع حمتي وكان هو يضع يده على جبينه وينظر إلي من الأ سفل... أخبروه أنني محمومة منذ ليلة البارحة وأن الحمى كادت تقضي علي عند منتصف الليل . نمت قبـــل انتهاء الزيارة.. كنت أشعر بنظرات أبي تسقط حنونة علي. راق لي أن أترك المشهد هكذا و... أنام.

آخذ قرصا مهدئا.

الدكالية تضع الفوطة على وجهها وتبكي بصمت . كسرت قطعة شوكولاطا وناولتها إياها . أخذت أراقبها وهي تضعها داخـــل قطعة من الخبز وتأكلها..

الساعة تشير إلى الرابعة بعد الزوال. الطبيبة ذات الشعر الأحمر تمنع أب ميلودة من الدخول وتحيله إلى الإدارة .. أب ميلودة العجـــوز يصر. تدفعه الطبيبة وتنادي على الممرضة .. ثم تطلب منها أن تطرد " هاذ العروبي الموسخ" الممرضة تستعين

بالحارس الحارس يضبطني أراقبه خلف زجاج البـــاب .. يهمـــس للممرضة بأمرها.. ينظران معا إلي ثم يسوقان أب ميلـــودة خــــارج الجناح...

في الجريدة إعلان عن أمسية شعرية سيحييها الشاعر ليلة رأس السنة. لو أنط من الجدار ليلا! تنفجر في رأسي ضحكة قوية.. سيكون ذلك مثيرا خاصة إذا استقريت جثة أسفل الجـــدار واكتشـــفوني في الصباح.. صباح السنة الجديدة..

الجمعة 28 – 12...

حدثت أمينة وحلومة عن فكرة القفز من الجـــدار . حلومـــة وجدت أن الفكرة جيدة وأمينة علقت بأنها إن تسللت إلى الخارج في ليلة ما فلن يكون من أجل أمسية شعرية..

- هناك أمور أكثر شاعرية في الخارج.

ثم دخلت في حوار مع باقي النساء . حلومة قالت إنها تعرف شاعرا في بلدهم يطلق عليه ناس الدوار حمزة لهبيل لأنه لا يتوقف عن الغناء... ثم أضافت أنها كانت تشفق عليه وتناوله بعـــض الخبـــز و "الشريحة" من حين لآخرعربة مي حليمة تمزق صمت الجناح . وقت العشاء: الخامسة والنصف. رأيت الدكالية تقفز من سريرها وتحمـــل طبقها وتخرج. تبعتها باقي النساء... لو فقط أستطيع الآن أن "أخترق" الباب الحديدي..في هذه اللحظة بالذات .. لكن الجسد كسمكات "بريفير"ينكمش الآن داخل البيجاما ، داخل فراش بارد في "صـــالة" عديمة التدفئة في جناح الجنس الثاني المحاط بسور عال يفصله عن جناح الجنس الأول في مستشفى بضواحي المدينة... ماذا يحدث الآن بالمدينة؟

خرجت جميع النساء يستقر نظري على النافذة المغلقة يقول Brel إنه يفضل أن يعتقد أن نافذة مغلقة تبيح للعشاق أن يحبوا بعضهم بشكل أفضل..

قالت الدكالية أن النافذة تطل على الخارج، وأنها أغلقت منذ ذلك الحادث المشؤوم.

الزايانية وحدها كانت تعرف كيف تحكي قصة النافذة، تقول إنه حادث طبيعي .. رحل "ينط" إلى صاحبته المريضة، يضيء الشموع في جسدها المنطفئ...

ومنذ ذلك الزمن أغلقت هذه النافذة ... كي تعيش النساء وحدهن بشكل أفضل...

أمينة أسرت إلي ذات مساء أن صاحبها "الوحش" طلب منها أن تحاول فتح النافذة..

كان صديقها الضخم يجلب لها "الصوصيت" والفواكه ولا يغادر الجناح إلا بتدخل من الحارسة . في إحدى زياراته رأيتها تضع يدهابين فخذيه وتضحك .. ثم رأيته يترع يدها ويهب واقفا، وبخلاف كل المرات أنهى زيارته قبل الأوان.

عندما خرج قفزت إلى فراشي وعانقتني ثم همست "أرغبه". ثم أضافت "إنه عن". في أحد تلك المرات التي جاءت فيها لتستمع معي للراديو قالت لي إنه يحبها لكنه لا يستطيع أن يسعدها أبدا... هو يقسم لها أنه لولاه لكانت قد أصبحت عاهرة "من زمان"... "إنه على حق" تقول أمينة وتضحك .. حكت لي كيف كانت تتجرد من ملابسها كاملة وتسدل شعرها الأشقر الناعم على وجهها ونهديها وتجلس قبالته... كان يناولها كؤوس

"البيرة"واحدا تلو الآخر .. وهي تنتظر... ترفع رأسها نحوه، الـــدفء يسري في مسامها ... تشعر أنها أمام برميل من البيرة ينبغي أن تتجرعه إلى آخره لتكتشف ما بقعره... لكنها قبل أن تتم البيرة العشرين تكون قد سقطت.. وفي الصباح تكتشف أنها مرة أخرى لم تستطع أن تصل إلى قعر البرميل...

تقول أمينة أنه كان يقدم لها الهدايا دائما ويعدها بالزواج وأنها كانت تحب البيرة و لم يكن أحد غيره يملك أن يطفئ عطشها...

أخذت أضحك..كانـــت تـــتكلم بجديـــة مضـــحكة ... "أرغبه"..انفجرت بالضحك ثانية ..نظرت إلى مســـتنكرة ... ثم سمعتها تقول:

- لا..ليس كما تظنين ...إنه ليس شاذا ... لكنها ظـــاهرة شبه عامة بين هذا النوع من الرجال... هكذا أسمع الناس يقولون.

السبت 29 – 12...

سألتها إن كانت تحتفظ بلباس خارجي ... أجابت أنها تخفي فستانها وحذائها في كيس بلاستيكي تحت السرير فسألتها إن كانـــت تتحدث عن حذائها ذي الكعب، قالت إنه ليس عاليا جـــدا وأنهـــا تستطيع أن تركض به...

- أنت يا حلومة في حاجة إلى حذاء بدون كعب، أحذية الكعب هذه صنعت للتمايل الأرداف الثقيلة.. نحن سنقفز الجدار...

الأحد 30- 12...

في منتصف الليل مات ميلود.

الإثنين 31 – 12...

كان الاتفاق أن نتسلل من أسرتنا بعد أن تنام النساء ونطمئن إلى نوم ي غنو... هناك حفر كثيرة في الجدار

وحلومة قوية... رغم المرض.. ستقفز أولا ثم تمد لي يدها...

بالنسبة للحراس وممرضي الحراسة أفترض أن لا يكون هناك أحد... فالليلة ليلة رأس السنة ومن العبث أن يهدي المرء ليلة مثلها للحكومة...

قالت أمينة لحلومة : " أنت تحنين للدعارة... هذا كل ما في الأمر... "

الساعة في يدي تشير إلى الثامنة والربع ... الأمسية الشعرية ستبدأ في التاسعة... أمي غنو قامت بدوريتها الليلة المعتادة ثم انسحبت بخطى ثقيلة إلى مخدعها... أخذ يتناهى إلى سمعي شخير الدكالية.. أعلم أن العجوز "مي يامنة" في الركن لا تنام .. لكنها لا تهتم لأمور "النائمات" في الغالب.

أخرجت برفق حذائي وسروالي من تحت الوسادة.. ثم تسللت خارجا.. رأيت شبح حلومة أمام "صالتها" ترتدي حذاء أمينة .. تقدمت حلومة بهدوء وحذر من الجدار... رفعت الكرسي القديم الذي تجلس عليه عادة مي غنو وصعدت فوقه ثم تسلقت الجدار .. سمعتها تقفز من أعلى... وقفت فوق

الكرسي، قبضت جيدا بالحاشية.. نجحت في حملي إلى أعلى... حلومة في الأسفل.تشير لي أن أقفز بسرعة .بـــدت المســـافة خياليـــة .. مستحيلة... أغمضت عيني... "إلى الحياة قدما"... وقفزت...

لم يكن هنا حراس ...تماما كما خمنا ... تســـلقنا البـــاب الخارجي.هذه المرة لم أجد صعوبة ... قفزت حلومة من بعدي ... وانطلقنا... خارج المستشفى...

هذا كل ما في الأمر

- انظرا معي.. فرويد استغل الأسطورة في تحليلاته السيكولوجية.

خذا مثلا ما أسماه بعقدة أوديب.. هناك أسطورة تتحدث عن أوديب هذا، أسطورة يونانية قديمة .. إنها حكاية رجل تزوج أمه وقتل أباه...

كنا ثلاثة وكان الجو حارا ولم تكن الحافلة قد وصلت بعد...

يمكن أيضا اعتبار عقدة أوديب ... في نفس السياق عقدة الأب... فتحت "هي" عينيها مندهشة بشكل مسرحي .. كنا نعرفه جميعا..

- ياه..هذا مثير تماما ... ومن فرويد هذا؟ نظر إليها باستغراب.. ومضينا أنا وهي بعيدا نتمم ما بدأناه من ضحك.

- العيالات.. سوق مطيار.. قال وهو يصارع عدوى الضحك...

- العيالات.. قلت؟ توقفت هي متسائلة وهي تقاوم هستيرة الضحك..

والرجال أيضا.. و لم يسمعني أحد..

واقترح إحدى مقاهي الشارع.

طلبنا جميعا قهوة سوداء وسقط كل واحد منا في فنجانــه .. كان الراديو يقدم نشرة الأخبار . مضى على هذا الآن ست ســنوات. اعتقد أننا لا زلنا أحياء وأن الأرض لا زالت كروية بحيث يمكننــا أن نلتقي يوما ما .صدفة، وندخل إحدى مقاهي المـ دينة ثم نطلب كمــا في ذلك المساء البعيد قهوة سوداء ليعلن كل واحد منا مع نفسه بسرية تامة أنه يرى فيها مرارته الخاصة . فيتحدث هو عن فرويد وعــن ذاك الذي ضاجع أمه في الأسطورة وتختلق هي طريقة تسخر بها من معرفته "العلمية".أما أنا فأفضل غالبا أن أبحث عن أوديب حولي لا تنــهي بحكاية ذلك الذي كان يجرع أمه العجوز كل ليلة حبة منومة ليمارس عليها الجنس إلى أن تكتشفه ذات ليلة فيلقى به في السجن بتهمة نكاح الحرمات التي حرم الله وهي الأم والجدة والأخت والخالة والعمــة ... القائمة طويلة..

الحافلة تقترب من محطتي .وضعت يدي على كتف ا لرجــل أمامي لأقف، فوقع الكيس البلاستيكي وتناثرت علب الأدوية. انحــنى الرجل يجمع معي ما سقط .فكرت أن المشهد سينمائي تماما .. هكذا يصور الكثير من المخرجين بداية علاقة ساخنة أو خطيرة .. أو فقــط عابرة أو أي نوع آخر من العلاقات التي يمكن أن تربط رجلا بامرأة . وضعت الكيس تحت ابطي والحقيبة على كتفي وشطرته دون أن أرفع نحوه رأسي. وأنا أقف عند الرصيف رفعت رأسي نحو المكان حيــث تركته. كان ينظر إلى من خلال زجاج

الحافلة ويبتسم.. أيمكن أن يكون هو؟ ابتسامة تقول إنه هو بعد ست سنوات .. القهوة السوداء والمرارات الشخصية .لوحت له بيـــدي، رفع لي يده وكان يبتسم بسعادة!..

كنت أعلم أن الحافلة ستجمعنا مرة أخرى وربما دخلنا إحدى مقاهي المدينة...

وحصل. كان رأسه يخرج من ربطة عنقه الحمراء المخططـــة ويداه بدتا مهزومتين خارج الأكمام السوداء .. رأيت بعض الحلقات من سلسلة ذهبية تلمع على معصمه .. حدثني عن همومه طويلا ثم عن طموحاته.. قلت لنفسي لقد " هرس له الزمن رأسه "..

وفي لحظة عم صمت نعرفه جيدا .. اسقطنا عيوننا في فنجانينا وكانت القهوة.. سوداء.

سألته عنها.. قال إنه رآها صدفة وكانت ترتدي معطفا ثمينا وتتأبط ذراع رجل..

ضحك عندما علم أنني لا زلت أبحث عن "ذاتي" و لم يفته أن يعلق على ذوقي في اللباس كما في الماضي.. ثم استغرقنا في فنجانينا مرة أخرى..كلانا يسبح في فنجانه .. في هذا السواد الهائل الذي يبدو بلا قرار ولا نهاية ...كأنه فهم الغول .. جوفه..الغول العظـــيم .. غـــول الحكايات القديمة والخوف القديم ..العتمـــة الـــتي تأكـــل أعضـــاءنا الصغيرة.. هل كبرنا فعلا؟

- من منا نحن الثلاثة تعتقد أنه كبر فعلا؟

سألته كي نصعد أخيرا من الفنجانين..

- لم يكبر أحد.. ثم إن.. العيالات ناقصات عقل..

أردت أن أقول إنني تأكدت مؤخرا أن الرجال أيضا..

فتحت فمي.. فوجدت أن الأفضل دائما أن نضحك وليقل كل واحد ما يريد .. هي الآن تلمع وسط المعادن التي لا يمكنـــها أن تكون أكثر من معادن في النهاية .. وهو يخرج رأسه من ربطة عنـــق مخططة ويتحدث عن "العيالات".. وأنا أضحك دائما، لأننا نضحك حتما عندما نكتشف أن الغول لا وجود له... وأن أمهاتنـــا وآباءنـــا وكل الكبار الآخرين كانوا متطرفين في سخافتهم.

جدتي مثلا كانت تمنعنا من النظر في عيون "النصارى" الزرقاء العميقة. تقول أن ذلك حرام وأن النبي محمد نهى عن ذلك.. ثم تضيف أن ذلك حرام حتى ولو في التلفزيون .. كنا جميعا نحاول أن ننظر إلى الأشياء الأخرى المحيطة .. لنتفادى النظر إلى العيون الـــزرق .. لكـــن الصورة كانت أحيانا تحاصر تلك العيون .. تقربها.. فتكـــبر العيـــون وتشمل كل الشاشة ..عيون صافي مشحونة بالحرام .. نرفـــع أيـــدينا الصغيرة إلى أعيننا وننتظر مرود المشهد ..وبين الأصـــابع الصـــغيرة .. كانت الرغبة في الاكتشاف تتسلل وتعـــانق الحـــرام .. فنضـــحك.. نضحك ملأ خوفنا ونرفع أيدينا عن عيوننا.. وننظر أمامنا تماما..

- نضحك دائما بعد اكتشاف الخدعة..

إحدى يديه تتحرك من جيبه لتدفع أرنبة النظارة.. يفتح عينيه ولا يقول شيئا.. سأخبره بما أفكر فيه:

أعتقد أنني ربما أخذت قهوة بحليب في المـــرة القادمـــة .. وقفت وصافحته ثم اتجهت نحو محطة الحافلة...

ما الذي نفعله؟

عندما نرفع الأيدي ولا يسقط الظل
عندما لا يقرع الباب
ولا يمر أحد تحت النافذة
عندما لا نسمع صوت الأرضة في الخزائن
ولا عويل الحب في الغرف المجاورة،
عندما نهرع إلى الأدراج
ولا نجد صور العائلة،
عندما نبحث عن مسدس، أو مدية أو أنشوطة،
ولا نجد سوى كلس الجدران
يتشقق في صمت مطبق،
عندما نبحث عن أسمائنا ولا نتذكرها
عندما يا إلهي يحدث كل هذا
في الليل، أو في علبة محكمة الإغلاق،
ما الذي نفعله؟

أمجد ناصر

هل أحكي لك حكاية اليوم؟ حكاية كل يوم ...

رغبة الحكي الجامحة تظل ناشفة في حلقي والساعة تجر عقربها الطويل نحو التاسعة لتعلن الواحدة إلا ربع ليلا . خرجت المـــرأة الـــتي كانت قبل قليل هنا، هي والرجل الذي كان قبل قليل هنا .. يسوقان "خليل" وسط صراخه الحاد رأيت الباب المقابل ينفـــتح ويطـــل رأس الجارة وزوجها الذي جلدها أول أمس .. شاهدت فضولا في عينيهما، فكرت أن أعتذرلماذا ينبغي دائما أن نعتذر؟) دخلت وأغلقت الباب خلفي..

ولأرتب الآن فوضاي داخل هذا السكون الذي حل بالغرفة فجأة. كانابن المرأة يتألم .رأيت أثر الصفعة على خده الأيمن .. لوح خليل بصندلته في الهواء .. سقط الكأس أرضا، دفع المرأة بعنـــف إلى الخلف.. صرخ أفتح الباب وأظل واقفة.

هل أحكي دائما؟

سأتسلى قليلا بالتفكير في مشروعية ما أفعل.. أنت.. هل لك حق ومشروعية الاستماع / القراءة . أعتقد أنه أحرى بي أن أفكر في جدوى كل هذا..

ماذا يبقى لدينا حينما تنكشف قواعد اللعبة .. هـــذه اللعبـــة البائسة حتى العبث؟

أتخيلك (تنساني في هذه الأثناء أن أحاول ذلك مجددا) غارقا في غيابك الاختياري، أستطيع أن أدرك كم أصبحنا غرباء.. لكن رغبة الكتابة تلح وتعلمني أن أراوغ هذا الإحساس بلا هوادة.. (أتوقف هنا، يصل إلى سمعي صوت المرأة من الخارج).

أقف في النافذة . تعاونوا جميعا وأخذوه، يبدو أنهما صـــادفا شخصا آخر.. الرجل أوقف تاكسي، أرى أشباحهم جميعـــا وهـــم يستندون خليل ويتقدمون به نحو سيارة الأجرة . يصل إلى أذني صوت مذياع "العساس" أدير رأسي أبحث عنه بين أشباح السيارات .. يقول جارنا أن هذا الحارس ليس سوى مخبر متنكر .. صوت "ميكري" يردد أن ليله طويل ما عنده نهاية.. تهب ريح بادرة، منعشة، أفكر أن صوت ميكري يتسرب كضوء صغير وسط العتمة .. لليل سحره.. وهذيانـــه أيضا.. أين يا ترى جرك هذيانك هذه الليلة؟

ربما اليوم احتجزوه. سيجدون هناك طبيب الحراسة. ستحكي له المرأة ما حدث كالعادة وسترجوه وتتوسل إليه وربما استحلفته بأمه كما تفعل غالبا في مثل هذه المواقف .. وسيكون طبيب الليلة أكثـــر إنسانية من الآخرين .. وقد "يقبل" أخيرا ويحتفظ في المستشفى بهـــذا الفتى الذي يكسر كل شيء حوله بما في ذلك آخر ما بقي لدينا مـــن قدرة على الاحتمال..

ماذا كنا نقول .. آه كنت أخبرك أنني أدرك وضعنا الحـــالي جيدا.. غرباء وهل كنا غير ذلك قبل الآن؟ حتى في أقصى

حالات "الحلول"كنت أحسك غير تام .. أتدري.. طول مدة حكايتنا تلك الجميلة كنت أنتظر .. أنتظر ذلك اليوم الذي تقرر فيه أن تندلق أمامي كاملا لأراك أخيرا .. أحسك، كنت دائما تحتفظ بقسط منك "خارجنا" أما كان ممكنا أن تكوني كما كنتك؟ هل يمكن فعلا أن يحصل شيء كهذا بين كائنين بشريين في مكان ما من هذا العالم؟ ورغم كل شيء تظل العلاقة التي تربط بنات حواء بأبناء آدم أكثر العلاقات سحرا وفتنة وأشدها غموضا ومثارا للتساؤل..

كان حلمي مستحيلا.. و لم أكتشف ذلك في وقته، لكن توقف معي قليلا عند هذه السطور "أنظر عميقا، عميقا جدا في هذا المكان السري للأنا حيث لا ينفذ أحد . لا أحد يستطيع اكتشافها، النفاذ إليها لأنه لا أحد يشبهني لأنه لا أحد يفهم أحدا . وأنت هل تفهمني على الأقل في هذه اللحظة؟ لا .بالتأكيد تقول إنه أحمق ! إنك تختبرني وتتحفظ مني ! تتساءل: "ترى ماذا أصابه هذا المساء؟ ولكن إذا ما توصلت أن تدرك يوما أو تخمن ألمي الرهيب والدفين فتعال إلي وقل لي، لقد فهمتك! ستجعلني سعيدا لثانية واحدة، ربما "[*] هل كنت ضروريا؟ كم تجري الأسئلة بعيدا، أنا التي أحاول أن أظل ما أمكن قريبة مما حدث، من حكاياتنا .. أن أعيد الشريط ثانية كما تفعل كل أنثى (تكتب بدم حيضها ستقول!).. أن أكرهك وأحتقرك أن أندم بلا حدود.. بلا مبررات أيضا أن أدفع الشمس بعيدا عني كي لا أغتر بحرارتها ثانية ... أن ... أن ... الخ.، وأنا في الحافلة المكتظة تقلني إلى مرقدي سمعت أحدهم – و لم ألتفت لأرى وجهه – يقول إننا جميعا ضحايا معنى الحياة ... كنت إذن – معناي.. هل أنا الآن بلا معنى؟ هزتني

---

[*]) من قصة لغي دي موباسان تحت عنوان "وحدة".

الحافلة بعنف ... شددت بهلع ظاهر عمود الحافلة..

أعود إلى أول السطر (ألا تزال صامتا تنتظر صياغة أوضـــح للحكاية؟)

خليل آه يا خليل!...

التقيته في ساحة الثانوية أسفل عمود النور، قدمني لأصدقائه.

- أختي الصغرى ترسم وتحب الكتب التي لا تفهمها.

كنت قادمة من صفوف القسم الا بتدائي إلى القسم الإعدادي بضفيرتين وعالم كامل من الأحلام.

هو أيضا ذلك الذي كان يلتقط يدي كل صباح أو يحـــيط كتفي بذراعه ونحن في طريق الثانوية. كان في السنة الخامسة وكنت في الأولى وعندما أحببت لأول مرة كان أحد أصدقائه، لمـــاذا؟ قـــال لي يوما:

- أتدرين أحيانا أتمنى لو أنك لم تكوني أختي!

كنا نمضي أوقاتا جميلة نحلم ... يحدثني عن معهـــد الفنـــون الجميلة وعن الحياة البوهيمية التي تنتظره كنت أخفي نتائجه الدراسية في محفظتي وأساعده في تزويرها ليوقع عليها أبي، أبي هذا الذي كـــان يريد أن "يخرج" منه شخصا عظيما.

- أنجينيور ديطا... وعلاش لا؟ أبناء الفقراء أيضا لهم الحـــق في أن يصبحوا كذلك ...

وأعرب خليل عن قراره في دخول المعهد بتطوان.

قال أبي:

فنان؟ على آخر الزمن ... يضع شرويطة اللور وشـــرويطة لقدام ... لن أسمح بذلك أبدا ... ويطلق شعر رأسه ولحيته. ويتيه بين الأزقة كمعتوه ... هل جننت لأقبل هذا؟

هكذا يتصور أبي الفنانين، تصور لا يخلو من بوهيمية .. أليس كذلك؟

لكنه سافر.. لطم خلفه الباب وسافر..

كان التلفزيون يقدم مسلسله العربي الحزين حتى الغثيان عندما عاد خليل وكنت أنا التي فتحت الباب.

فتحت لخليل هذا الذي أخذوه قبل قليل.

وتلك كانت ليلة . كانت الفوضى قد حلت في نظامـــه ... فوضى كاملة لم يحتملها "عقلنا"

في الصباح اختفى..

كنت أمتطي الدراجة النارية خلف ابن الجيران، كان الـــزمن ليلا وكنت صامتة لأبي أبي لم يكن قد مات بعد ولأننا كنـــا جميعـــا نسارع إلى إخفاء ألمنا بمجرد أن نشك في أن الآخرين قد يشفقون ... جميعا.. وبسرية تامة كنا نغذي وهما يقول أنه سيعود. لأجل كل ذلك كنت أشد جاكتة ابن الجيران والقي بوجهي إلى الريح ... وأصـــمت. كم كان عمري... ربما سبع عشرة سنة...

هل أستمر في اللعب بالمكعبات الحادة لهذه الحكاية؟

أجل وأذكره عندما عاد، لا أقول وجدناه، أنا – على الأقل –

لم أجده بعدلك الذي كان يقف أسفل عمود النور لم يعد بعـــد .. أتذكر فقط أنه سافر .. كان يرسل لي من حين لآخر رسائل متســـخة بألوان وأقلام متعددة .. بها رسوم يحدثني فيها عن "فان غوخ" الـــذي قطع أذنه ليقدمها عربون حب لامرأة ما كانت لتستحقه .. وعن تلك المدينة حدثني أيضا عنها ... عن "مريامة" أو "مامريا" كمـــا كـــان يفضل أن يلقبها . كان يحب أغاني فريد الأطرش ... كان رقيقـــا .. وأعتقد – صدقني – أنه لو لم يكن مضحكا في وسطنا تقبيل أيـــادي السيدات والآنسات لكان يقبلها (وكم كان سيكون ذلـــك مســـليا فعلا!)

كانت تصلني منه رسائل يحدثني فيها عن "الكونســـرفاتوار" الإسباني العتيق الذي اتخذ منه الطلبة مرسما، حتى أصبحت أعرف كل ركن في هذا المسرح : الخشبة، الستائر المخملية الزرقاء التي ينفر منها غبار أسود كثيف عند هزها، المصـــابيح العاطلـــة .. ثم الجـــداريات الكلاسيكية التي تسبح بالمكان في فتنة العصور الوسطى وتعود بالذاكرة إلى أمجاد التشكيل .. أكاد أتخيل الطلبة داخل البهو الضيق وبين المقاعد وسط قماشاتهم Les toiles.. وألوانهم، وأراها لم يكن يكتـــرث إلى إلحاحي في رؤيتها أو حتى معرفة أوصافها .. كان فقط يترك من حين لآخر شيئا منها يسقط بين السطور... لكني نجحت في تشكيل بورتري نهائي لها:بيضاء نحيفة كظل ... شعر أسود ناعم، عينـــان ذكيتـــان وابتسامة ساحرة.

كانت هذه هي "ماريا" وكان خليل يحبها.

حديثه عنها كان دائما يبدو لي غريبا ومثيرا .. كـــان يتـــرك الأفكار تنظم نفسها ينتقل في حديثه من الكونسرفاتوار إلى "ماريا"

إلى ظروفه المادية.. هكذا بدون ربط. كانت تستهويني هذه الرسائل خاصة عندما يحدثني عن أصدقائه .. عن أحمد الأسود القادم من الدار البيضاء والذي كان يدمن بعد الألوان الحشيش والقيثارة. أتذكر كيف كان خليل يحكي ذكرياته مع أحمد أتساءل الآن.. لماذا كان لدي دائما هذا الإحساس الغريب بوجود ع لاقة خاصة وحميمة جدا بين أخي وأحمد؟؟

أعرف الآن أنني أستطيع أن أميزه بين كل المارة إن أنا صادفته في الشارع ... أنا أعرف أحمد هذا..

ثم كان هناك إدريس .. بيضاوي أيضا.. يتقاسم مع خليل "النوالة" دفعنا في إيجارها مائتي درهم كل شهر .. بدون ماء ولا كهرباء. نوالة من الطين والتبن منعزلة فوق الجبل ... كانت أثمن ما يمكن أن يسددا إيجاره في تلك المدينة ... بعد أن حرما من حق الإيواء في الداخلية التابعة للمعهد.

في رسائله كان يحكي لي كيف حولا منزلهما الفريد من نوعه إلى مرسم حقيقي .. كيف أثثاه بالألوان والكتب ودخان الحشيش الكثيف (هذا لم يقله في رسائله لكني أستطيع أن أتخيل!)

وصلنا إلى إدريس في رحلة بحثنا عن خليل أول ما أثار انتباهي هو طراز منزله الفرنسي والحديقة الصغيرة الجميلة التي تقود إلى الصوان. عندما رأيته فكرت للتو أنني كنت أتصوره أكثر وسامة ... ولم أهتم للمسألة كثيرا . كان يدفئ جدران منزله الأبوي باللوحات الزرقاء. تركت أختي تدخل حديثا مع أمه وأخذت أسترق النظر إلى أثاثهم التقليدي الجميل وإلى اللوحات أمامي وخلفي.

كان هو صامتا. فكرت أنه لا يتحدث بسهولة.. يكتفي

بالنظر إلى محدثه، يعطي الانطباع بأنه لا زال ينتظر وعليك أن تقـــول كل شيء(أتوقف هنا لآخذ قليلا من الماء أبل به حلقـــي).. يطـــرح أسئلة غريبة..أنظر إلى أختي ..أجد أنها لم تفهم شيئا .. يظل ينظـــر إلى.ينظر جوابا عن سؤال لم أفهمه .. بعينين هادئتين... أشعر أن لبسا ما يحدث داخل هذه الحلقة المعتوهة أختي – أمـــه – أنـــا – هـــو.. أضحك..أنظر إلى اندهاش الآخرين ...انفجر بالضحك أكثر .. ثم اهدأ واعتذر!

قال لي قبل أن نهم بالانصراف:

- لقد حدثني خليل عنك..

كنت أفكر أن في عينيه شيئا كأنه الحقد أو التحدي .. شيء يدفعك للصمت والتردد..

-كنت أفكر أن في عينيه شيئا كأنه الحقـــد أو التحـــدي .. شيء يدفعك للصمت والتردد.

-أنت تستطيعين مساعدته ..أنا أعتقد ذلك ! عندما انتهت الزيارة أحسست أن تواطؤا ما مر بيننا خلسة – وضـــعت يـــدي في يده... احتفظ بها قليلا.. ولأول مرة يتركني أرى ابتسامة رقيقة بددت كل التردد السابق..

سمعت صوت مريا عبر أسلاك الهاتف، كانت تقول أنهـــم لم تكن تعرف عنه الكثير وأن الطلبة لاحظوا تدهور حالتـــه النفســـية والصحية فتشاركوا في ثمن تذكرة الكار وأرسلوه.. وأن بعض حوائجه –ولوحاته لا تزال بالنوالة .. كنت أريد أن أسألها إن كانت متألمة لما حصل.. لكن المسألة كانت تتطلب إضافة درهم آخر.. أنهيت المكالمة.

في الليلة التي أعقبت اختفاءه مارست التفتيش في حقائبه (هذه اللذة التي يمكن أن تفهمها أنت) أخرجت قماشاته وأقلامه

وفرشاته.. كانت هناك علبة سجائر فارغة وموسى حلاقة وأشياء أخرى... وفي القعر مع حثاتات من التبغ والخبز وجدت قصاصة صغيرة مكتوبة بقلم رصاص بهتت خطوطه من كثرة احتكاكها بالأشياء.. أسماء كثيرة، قائمة بالأسماء المذكورة وأمامه أخرى بالأسماء النسوية وأمام كل اسم توقيع .. ثم في الأسفل يعلن عن مشاركة ومسؤولية كل هؤلاء عن الإضراب الذي تم داخل المعهد احتجاجا على تجاوزات الإدارة في حق بعض الطلبة .. والوضعية الغذائية المتدنية "بالريسطو".. اسم خليل كان على رأس القائمة وعرفت خط يده الجميل..

عاد خليل بحثنا عنه بين الجثث في مراكز الموتى . في المستشفيات عند الأصدقاء.. لكنه عندما عاد، عاد بمفرده..

كان خليل "مختفيا" بمستشفى الأمراض العقلية... أتدري كيف يحصل ذلك؟ لقد وجد وه أمام باب بناية البرلمان يطالب بمقابلة المسؤولين؟ لأمر مستعجل لا يحتمل التأخير..

هل تستطيع أنت أن تفعلها؟

احتجزوه أخيرا في المستشفى .. تقول المرأة أنه كان يصرخ في ردهات المستشفى:

- أنا مزاوك... أنا مزاوك...

أنا مزاوك...

فهـــــرس

ديدان 9
حكاية سخيفة 17
يداه 23
حساء ردئ 39
صهد النساء وصهد الرجال 47
حذاء بدون كعب 55
هذا كل ما في الأمر 71
ما الذي نفعله؟ 77